مقدمات حول الشعر الفلسطيني الحديث
والثقافة الوطنية

الكتاب : مقدمات حول الشعر الفلسطيني الحديث والثقافة الوطنية
المؤلف : المتوكل طه
الطبعة الأولى - 2004
الغلاف : مروان العلان
(كل الحقوق محفوظة)

صدر عن دار البيرق العربي
للنشر والتوزيع
رام الله - فلسطين

Tel : 02 - 2980241
E-mail : dbairaq@yahoo.com

الإشراف والتنفيذ :

المؤسسة الفلسطينية للإرشاد القومي

2004

مقدمات حول الشعر الفلسطيني الحديث والثقافة الوطنية

المتوكل طه

الفهرس

* افتتاح – الشعر .. الزمن في لحظة 7

* الشعر الفلسطيني الحديث في الأرض
المحتلة العام 1967 17

* الشعر الفلسطيني الحديث
في الأرض المحتلة 1948 ، 1967 ، وفي الشتات 37

* واقع الثقافة في فلسطين 75

افتتاح

الشعر .. الزمن في لحظة

I

هل الشعر علاقة انفصال أم اتصال بالعالم ؟!

هل هو علاقة تدمير وإفناء وإلغاء ، أم علاقة تكامل وتآلف ؟!

قد يبدو السؤلان قديمين قدم الألم والفرح والخيبة والأمل !

ولكن أليس الشعر مثل اكتشاف النار والعجلة والكهرباء ؟!

وإذا كانت تلك قد جعلت من الواقع أسهل وأقل تعقيداً وأكثر عرياً وفقراً وقلَّة غربة ، فإنَّ الشعر يغيِّر وظائفه مثل ما نغيِّر قمصاننا .

الشعر من مشغولات العالم ، يأخذ منه بنيانه وهندسته وألفاظه، لكنَّه سرعان ما يتحوَّل إلى مشغولات سماوية ، فالعالم الذي ينهار يوماً فيوماً، ويتآكل بوتيرة عالية ، ويُنتهك لحظةً بلحظة ، ويتذاوب في المختبرات ، يتحوَّل إلى مُكتَشف مُذهلٍ في الشّعر .

هناك عوالم بعدد القصائد التي كُتبت أوٌ قيلت .

هناك عالم واحد يتخلَّق في ملايين القصائد التي كُتبت وستكتب ، وهناك حلم واحد يشترك في تأليفه كل شعراء الدنيا الذين خُلقوا والذين لم يُخلقوا بعد .

فمن شعر الخوف إلى شعر العقل والمجالدة ، إلى شعر السِّحر والأحلام ، إلى شعر التدمير إلى شعر التأمل ، هناك رغبة واحدة وحلم واحد – وربما هدف واحد – ألا وهو فحص هذه الذات أمام هذا الواقع . يتقدَّم الشاعر بقصيدته ليغزو العالم أو ليفهمه أو ليرفضه أو ليفسِّره أو ليصرخ في وجهه ، يرغب الشاعر أن يحشر العالم الواسع في لغة ضيقة ، ويرغب الشاعر أن يضغط الزمن في ثانية ، يتمنَّى الشاعر أن يلمس بروحه هذا الرحيق العجيب الذي يُدعى الحياة ، بلغة بشرية ليس إلاَّ ، لغة بشرية بائسة وفقيرة وعاجزة ، وأنّى للشاعر أو للشعر أن يقبل بالبؤس والفقر والعجز .

الشعر يدَّعي كثيراً ، ويطلب النبوءة والكشف والاختراق والإحاطة .

الشعر فيه «آخرُنا» و«خارجنا» و«زمننا» و«مكاننا» .

لكم يتواجد في الشعر من «الخارج» ! !

لكم تتطامن الذات في التعبير عن نفسها ! !

ولكم تخوننا لغتنا فلا تصبح مثلنا ولا كما نريد ! !

وللشعر رغبة في المُقدَّس ، ذلك المقدَّس الذي يأتي من غريزة الخوف والعودة إلى الحضن الأول ، فيأتي النصّ محمولاً ومضمَّخاً بالغامض والغارق في التأويل ، والتأويل هو المنطقة المشاع التي نختلف فيها ونتعارك عليها ونقيم أصنامنا ومعبوداتنا عليها .

التأويل «لآخرنا» و«لنا» ، أيضاً ! !

يا لهذا الشعر الذي يوهمنا بأنَّنا أقوى وأقدر !!
لأعترف أنَّ كتابة الشعر تعني مقاربة «الثورة» ومقارفتها!!
لأعترف أنَّ القصيدة نقيض و«تحريض».
لأعترف أنَّ الشعر - كما اكتشف الجرجاني ذات يوم - لا علاقة له بالسائد والمتعارف عليه.
القصيدة «توهمني» بأنَّني أرى من أعلى، وبأنَّني «أُشرف» من قمَّة !!
القصيدة تقدم لي «الإرث» كلَّه، لأجبل منه تمثالي، وتقدم لي الكرم كلَّه لأصنع منه نبيذي.
الشعر فوق الزمن إذا تأمَّل..
الشعر فوق التاريخ إذا رأى..
نحن نجد أنفسنا دائماً في الشعر القادر على حثِّ فضولنا واستثارة كوامننا واكتشاف طاقاتنا الراقدة.
ولأنَّ الشعر تراكم التجارب واستخلاصات التاريخ ومفاجآت الاكتشاف، ولأنَّه يُحمل بالموسيقى والإيقاع والغموض، فإنه بقدر ما يجعلنا في «غربة» عن عالمنا، بقدر ما «يجمِّل» هذا العالم.
يا لله !!
كيف لهذا الشعر أن يُشعل الغابات في لحظة، وكيف له أن يُنضج دلَّة قهوتنا الصباحية في لحظة أُخرى !!
للشعر أحابيله وأساليبه وألاعيبه، وللعالم قوانينه ونواميسه، والعلاقة

بينهما كعلاقة الثائر بالتاجر، أولهما يرى في النهر مرآة، وثانيهما يرى فيه سمكاً .

لهذا الشعر - وهو من قول لغويّ ليس إلاّ - قوة التجميع وقوة التفريق، اللغة تحكم العالم ، وتهدمه ، أيضاً !!

والشعر، بما فيه من خيال وتغريب ، حاول - في الماضي على الأقل - أن يتآلف مع العالم، فصاغ أساطيره جميعاً ، أما اليوم ، فإنَّ الشعر يصوغ أُسطورته لنفسه ، إنَّه يتواضع وينزوي، بعد أن صار الخيال والتغريب من صنع التكنولوجيا ، ولهذا ، فهو يحتفي بجمالياته وأساطيره بشكل انفرادي بعد أن فقد الجماهير .

للجماهير أوهامها ، ولإعلام التكنولوجيا أفانينه .

لعالم اليوم نثره وسردياته وصوره ، وللشعر أن يتعوّد انصراف الجماهير عنه ، بعد أن فقد هذا الجمهور آذانه واستعمل عيونه فقط . لم يُغمض «بوذا» عينيه عبثاً ، كان يريد أن يسمع .

نحن اليوم في عصر العيون بدل الآذان !!

والشعرُ الذي كان يرغب دوماً في «الاتصال» يذهب الآن باتجاه «الانفصال» ، حاملاً معه غضبه وغموضه وادعاءاته !!

والشاعر يلهث للحاق أو الإمساك بما تبقى له من مساحة تسرقها منه تكنولوجيا البصر ، التي تكفي الإنسان شرَّ الخيال، بما تقدِّمه له من عمليات إبهار مذهلة .

الشاعر ، والفنَّان ، عموماً ، يسابق التكنولوجيا في تغوُّلها وسيطرتها ، ولهذا فهو يضطر إلى أن «يُشكِّل» قصيدته فيما بقي له من هوامش !! والأزمة – هنا – هي أزمة تاريخ لا أزمة شعر !!

II

أزمة تاريخ أم أزمة شعر؟ هذا هو السؤال الذي دفعنا لمحاولة القراءة النصيّة والسوسيولوجية للنتاج الشعري والأدبي الفلسطيني في مراحل القوة والضعف، مراحل المواجهة والاحتواء والتمثّل والاستيعاب، مراحل توهّج الشعر وانكساره، أو محطاته التي كان فيها أحادياً ومطلقاً، وتلك التي تواضع فيها وتطامن.

هذا الكتاب يرغب في القول إن النتاج الشعري والثقافي الفلسطيني ، والعربي كذلك، كان ، أولاً وأخيراً، يعبّر عن ثقافة غنية مليئة بالنماذج والسقوف والمُثل العليا التي ظلت ، ولما تزل ، تشكل الملاذ الأخير لكل ما يقال أو يكتب، وإن لكل أمة عريقة هناك ما لا يُقايض به وما لا يُباع وما لا يغيّب، وإن هذا «المطلق» هو ما يقاس به وما يقاس عليه، على رغم كل الانكسارات والتسويات.

ولهذا يظل الشعر الأصدق في التعبير عن الوجدان العميق الذي هو بمثابة المسلمات، ولكن الشعر، أيضاً ، بسبب من تاريخيته ، يتذبذب

بين المطلقية هذه والنسبية التي تجعله أكثر رغبة في «المعايشة» و«التفاهم» و«الفهم».

في هذا الكتاب رغبة طموحة في تأصيل التجربة الشعرية الفلسطينية في مكانها وفي تاريخها، خصوصاً ذلك النتاج الذي صدر في الأرض المحتلة العام 1967، هذا النتاج الذي لم يُدرس بما فيه الكفاية، ولم يُتابع ولم يُسلط عليه الضوء الكافي، لأسباب عدة ومختلفة، لا نرى فيها ما يبرر هذا التعتيم وهذا الإغماط، فالنتاج الشعري الذي صدر في الأرض المحتلة العام 1967 كان شعراً حقيقياً وأصيلاً، ذلك أنه اجترح شكله ولغته وأسلوبه وصوره ومضمونه من بيت النار، وعلى رغم هذه الضرورة التاريخية، فإنه حمل معه ما يبرره وما يجمّله، أيضاً، هذا الشعر الذي لم يكن قادماً من «ثورة الخارج»، ولم يكن قادماً من «أدب الداخل»، بل كان شعراً خاصاً يصدر عن معاناة الاحتلال والاستيطان والمصادرة والتقييد والسجون، فأتت مباشرته ووضوحه وشعاريته تماماً كواقعه، وصارت جمالياته تماماً كمعاناته، وتحولت أساليبه تماماً كإيقاع الحياة من حوله.

وبعد هذا كله، فهو جزء من تاريخ الشعر الفلسطيني، ومحطة أصيلة من محطات تطوره وتنوعه.

في هذا الكتاب، محاولة طموحة لرصد هذا الشعر من زوايا مختلفة وعدة، لتقدم مفاتيح دراسة، ومناهج بحث، ولتشكل دراسة أولية

تحريضية للدارسين والباحثين والنقاد والأجيال الفلسطينية والعربية للتأمل في الشعر تحت الاحتلال، وللتحديق في الفلسطيني الذي لم يهُن ولم يضعف ولم يستسلم، ولدور الشاعر الفلسطيني الذي لم يهرول أو ييأس أو يختفي .

وربما كانت القضية الأكثر بروزاً في الشعر الفلسطيني ، بخاصة ، والعربي بعامة ، هي قضية العلاقة مع «الآخر» على مختلف مستوياته وتجلياته، فالعلاقة مع «الآخر» شكلت دائماً المحرّض لهذه الأمة في تفاعلاتها وحركتها التاريخية والاجتماعية .

فالآخر الغازي والقوي والمستعمِر و«المتنور» والباحث و«الأخلاقي» كان دائماً مصدر إثارة وقلق ومخاوف، ويمكن القول إن ثقافتنا العربية الإسلامية في جزء كبير منها كانت ردوداً أصيلة - أو أقل أصالة - على الآخر ، حسب فترات القوة والضعف، وهكذا كان شعرنا الفلسطيني والعربي، وكذلك معظم النتاج الثقافي العربي ، خصوصاً في العصور الحديثة التي كان فيها «الآخر» ليس مجرد المستعمِر دائماً ، وإنما ، أيضاً، الباحث والعالم والمفكر وحتى الشاعر .

في هذا الكتاب نقاش لرصد طبيعة تلك العلائق مع «الآخر» في حضوره لدينا ، وفي الصورة التي كونها عنّا ، والتي كونّاها عن أنفسنا بتأثير منه، وكيف تفاعلت تلك الصور فيما بينها لتصوغ ردوداً ثقافية غاية في التنوع - تلفيقاً وترقيعاً وانتقاء وانتفاء وإغماطاً وأصالة - .

أخيراً ، هذا الكتاب أوراق متعددة نشرت في أماكن مختلفة، جمعتْ بينها القضية الواحدة، وأراها جديدة وجديرة بالاهتمام، راجياً أن أكون قد أثرت شهيّة الآخرين للكتابة والمتابعة في تأصيل تاريخنا الفلسطيني الحديث ، رغم الغياب الطويل للدولة والمؤسسة، فالفلسطيني صاغ، ولما يزل تاريخاً مجيداً يحتاج دائماً إلى من يعيد روايته للأجيال، الآن، وفيما سيأتي !! والحمد لله رب العالمين أولاً وأخيراً . . .

المتوكل طه
تشرين الأول - اكتوبر 2004 م
شعبان 1425 هـ

الشعر الفلسطيني الحديث
في الأرض المحتلة العام 1967

I

كتابة الضرورة

ثمة جيل أو كوكبة من المبدعين الذين ولدوا في فلسطين ، وتفتّح وعيهم الاجتماعي والسياسي والفكري في بداية السبعينيات أو نهاياتها ، شكلوا ظاهرة مميزة لم يكلّف أحدٌ نفسه البحث في نتاجها أو النبش في تضاعيفها ، فقد تكونت - لسبب ما - رؤية نمطية أو تقييم مسبق عن ذلك الجيل وعن نتاجه ، أقل ما قيل فيه : إنه نتاج خطابي ومباشر ومنبري ومتشنج وغير فني ، وإنه متحامل ومنحاز وعاطفي وليس فيه جماليات تدرس أو أساليب تستساغ .

وهكذا شُطب المبدعون من الضفة والقطاع من قائمة المبدعين الفلسطينيين الذين أضافوا إلى الأدب الفلسطيني شيئاً ، وتم تجاوزهم تحت مسميات عدة ، وبالتالي فقد حُرموا من النشر أو إعادة النشر ، وحرموا من الدراسة والنقد ، وحرموا من الأضواء ، ولم تقترب منهم روافع الأدب أو السياسة أو النجومية ، وهكذا كان عليهم أن يناموا في الظلام ، وأن يتطوروا بصمت وعناد ، وأن يبنوا أنفسهم بأنفسهم وإيمانهم بقضيتهم الجمالية والموضوعية .

كان على هؤلاء المبدعين أن يكتبوا وهم يعرفون أنهم غير منتشرين ،

وأنهم وحيدون تماماً ، وأن تواصلهم مع غيرهم يكاد يكون مقطوعاً ، وأن نتاجهم يجد طريقه في بعض الأحيان إلى المنابر بسبب الخصوصية الفلسطينية أو بسبب الخصوصية الجغرافية ، وكأن نتاجهم لا يتميز بغير ذلك ، أو أن هذا النتاج لا يُحمل إلا بسبب ذلك .

إن ذلك الصمت والتجاهل دفعا البعض من هؤلاء المبدعين إلى التواري أو الجفاف أو الموت أو الغياب ، سكوتاً أو هجرة أو كسراً للقلم وحرقاً للورق .

إن الاحتلال لا يجفف الإبداع ، ولا يدفع الناس إلى الموت ، بل على العكس من ذلك ، فالاحتلال يدفع إلى التعلّق بالحياة ، ويدفع إلى إثبات الذات ، ويدفع إلى التحدي ، وربما كان هذا هو السر وراء الإبداع في الأرض المحتلة ، أو أن هذا هو الإكسير السحري الذي كان يدفع المبدعين الفلسطينيين إلى التنظيم والاجتماع وتكوين الفرق المسرحية أو التشكيلية أو الأدبية ، وهذا الذي كان يدفعهم إلى تنظيم المهرجانات واللقاءات في المدن والقرى والمخيمات لقراءة القصص وإلقاء الأشعار .

التعلق بالحياة وإثبات الذات وروح التحدي هي التي كانت تكمن وراء ذلك الكم الكبير من النتاج الأدبي والفني في الضفة والقطاع ، كان ذلك أشبه ما يكون بكتابة وضرورة خلق، بمعنى ضرورة الوجود وضرورة الكينونة وضرورة التعريف بالذات وضرورة خلق المسافة التي تجعلنا غير محتلين .

كتابة الضرورة هي كتابة التقشف والمكاشفة والصراحة والوضوح وربما الصراخ .

كتابة الضرورة هي كتابة الاختزال وعدم الفذلكة وعدم الترف .

كتابة الضرورة هي كتابة الجذور والاحتماء بالمرجعية العليا .

كتابة الضرورة هي الرد على الحصار والانقطاع والتغييب والتقتيل والإلغاء .

ولا يمكن لأحد أن يتجاوز لحظته الزمنية - ونحن هنا لا نتكلم عن عباقرة ، نحن نتكلم عن مبدعين راكموا نتاجاً فنياً في لحظة زمنية معينة- ولهذا ، فإن سنوات السبعينيات والثمانينيات سنوات عجاف بكل معنى الكلمة ، سنوات كان فيها الاحتلال في أوج ذكائه ودهائه وألقه وقدرته على التعامل مع الجماهير ، وكان فيها الاحتلال احتلالاً مراوغاً قادراً على امتصاص الغضب وقادراً على تقديم الحلول الجزئية التي تبدو من الخارج حلولاً كافية أو مناسبة أو لنقل : إنها كانت تلقى قبولاً ولو سلبياً .

ولم يكن الاحتلال وحده هو الذي يلعب في الساحة ، كانت هناك قوى عربية وأخرى محلية قادرة على تجميل معادلات الاحتلال وجعلها أكثر من براقة . وربما يفسّر هذا عدم انفجار الثورات الكبيرة في تلك السنوات ، وربما كان ذلك يفسر عدم نجاح ما يسمى في حينه «الحرب الشعبية» ، واستطاع الاحتلال لذلك أن يحاصر كل شيء ، وأول ما حاصر المناضل الثوري ، مروراً بحصار الاقتصاد والثقافة وتطور المجتمع الفلسطيني نفسه .

إذاً ، تحرك المبدع في تلك السنوات في ظل هامش ضيق من كل شيء : الفقر المعرفي ، وغياب المنابر الصحافية أو الحزبية العلنية ، وغياب المؤسسات التعليمية ، وغياب المجتمع الذي يشجع المبدع عن طريق الجائزة أو التفرغ أو النجومية ، وغياب الظرف الدافع المحرض على الاستمرار . فالكتابة في نهاية الأمر ، مثلها مثل كل عمل ، تحتاج إلى تغذية راجعة .

كان المبدع في تلك السنوات يمارس إبداعه حتى لا يصاب بالجنون ، فقط ، فالمجتمع حوله لا يكاد ينتبه إليه ، خصوصاً إذا علمنا أن سنوات السبعينيات والثمانينيات تميزت بتدمير الاقتصاد الفلسطيني وانحسار المساحات الخضراء وتدمير الزراعة وتحول أكثـــر من (85) في المائة من الشعب الفلسطيني إلى عمال في مصانع «إسرائيل» ومزارعها ، وهذا يعني انخفاض الاهتمام بالثقافة بجميع أشكالها ، وانخفاض مستوى الاهتمامات الفنية والفكرية .

الفن والاهتمام به تعبير عن رغبة اجتماعية ، أيضاً ، الفن في نهاية الأمر سلوك اجتماعي ناتج أو مؤسّس على قيمة اجتماعية ، والمجتمع العمالي الذي أُجبر على أن يتشوه بهذا الشكل سيكون أقل اهتماماً بنتاج نخبوي مثل الأدب .

ولهذا كان على المبدع أن يكون مباشراً واضحاً لا يستطيع أن يتجمل ولا يستطيع أن يتأنق ، كان عليه أن يتقدم إلى جماهيره بلغة سهلة واضحة يضع فيها كل استخلاصاته وكل هواجسه وكل آماله .

هذا من جهة ، ومن جهة أُخرى ، كان الاحتلال بالمرصاد ، حصاراً للمثقف وحصّاراً للكتاب وحصاراً للنشاط الثقافي وحصاراً للمؤسسة الثقافية ، وكان الاحتلال برقابته العسكرية والمخابراتية صاحياً ويقظاً لكل ما من شأنه أن يكشف سوءته القبيحة أو يفضحها أو يعريها .

في مثل تلك الأجواء القاحلة الجديبة ، ظهرت كوكبة من الكتّاب والشعراء والفنانين الذين حاولوا أن يقولوا في وقت لا يكاد فيه للقول ، ولا يكاد فيه للثقافة ، ولا يكاد فيه للجدل والنقاش والحوار ، ولا يكاد فيه لاصطراع المذاهب والتيارات النقدية والجمالية والأسلوبية ، أي مكان .

كانت السياسة بمعناها النضالي والفصائلي هي الطاغية ، سراً أو علناً ، وكانت المنافسات المالية والعشائرية هي الطاغية المسيطرة ، ومن المفارقة العجيبة أن تكون سنوات السبعينيات والثمانينيات هي السنوات الأكثر نمواً وتطوراً ودخلاً مرتفعاً للمواطن الفلسطيني ضمن سياسة احتلالية تقوم على تحسين الحياة الاقتصادية مقابل الابتعاد عن الاهتمام بالسياسة بشكليها الثقافي والسياسي .

تلك الكوكبة من المبدعين واجهت ذلك كله بنتاج أدبي تراوح بين الغضب والأمل ، وبين خيبة الأمل والنضال الأبدي ، وكان عليها أن تواجه اليومي المعيش على حرقته ، وأن تتأمل الاستراتيجي على بعده ، وكان عليها أن توازن بين اللحظة المعيشة والمستقبل الغائب . ولهذا ، تراوح

النص ، أيضاً ، بين الصراحة الموجعة والمواربة الغامضة ، وبين آهة الألم وحشرجة اليائس .

المراوحة بين الاجتماعي والسياسي في أدب تلك السنوات كانت تَم بمعزل عمّا يجري في الساحات العربية أو في مدن الثقافة العربية ، إذ كان اليسار مسيطراً ، من جهة ، واليمين الذي يدعي الإسلام أو المحافظة مسيطراً ، من جهة أُخرى ، أما في الأرض المحتلة ، فقد كان الحوار يجري في وادٍ آخر ، وله أولويات أُخرى تماماً ، حتى الكتّاب اليساريون كان عليهم أن يستعملوا لغة مختلفة ، أو أن يضعوا لأنفسهم أولويات أُخرى ، حتى ولو كانت تلك على غير ما يحبّون .

أذكر أن من أولى الروايات التي ظهرت في أوائل السبعينيات كانت رواية بعنوان : « بيت من البنات » ، أرادت أن تعالج حرية البنت في مجتمع يُجبر على أن يتشوه من جذوره . كانت رواية اجتماعية بكل معنى الكلمة ، ولكن البيئة المحافظة التي كان يعيش المؤلّف فيها لم تفهم ولم تقدّر عمله ، فثارت عليه ، ما اضطّره إلى الغياب حتى هذه اللحظة .

كانت مواجهة المجتمع في تلك السنوات صعبة جداً ، ولهذا غابت الأعمال الأدبية التي توجه إصبع الاتهام إلى المجتمع ، ومال المبدع إلى تقديس جماعته أو مجتمعه ، لأسباب نضالية أو لأسباب اجتماعية .

وهكذا غاب العامل الاجتماعي أو تفاصيل الحياة اليومية من النص الأدبي ، وصار الهجوم على الاحتلال موحّداً وجامعاً وملخصاً لكل

الخلافات أو التناقضات . وفي هذا الشأن يمكن أن يقال الكثير ، إذ إن المبدع – ولاقتناع ذاتي أكيد – يعتقد أن المحتل سبب كل المشاكل ، التخلف والعشائرية والعمالة والخيانة والتبعية . يضاف إلى ذلك أن الهجوم على المحتل لا يكلف كما تكلف مواجهة الجماعة ، فالسجن أرحم من النبذ ، والاعتقال أرحم من الرفض .

ولكن الكتابة ضد الاحتلال كانت ضرورة ، أيضاً ، ففي زمن الحروب والاحتلالات تكتسب الجماعة ميزات مقدسة ، ويسبغ عليها ما فيها وما ليس فيها ، ويتم استنهاض الروح الجماعية والإرث المقدس للجماعة حتى تكون على مستوى التحدي ، وتعود العيوب والنواقص فيها إلى نتائج الاحتلال وليس بسبب فطرة أصلية .

ومن هنا ، كانت الكتابة ضد الاحتلال أكثر قدسية وأكثر طهارة وأكثر قبولاً وأكثر شرعية من الكتابة عن المجتمع . إن الكاتب الذي ينتقد مجتمعه يتحول إلى « نمّام» و« فضّاح» لأسرار جماعته زمن الاحتلال .

ولكن غياب الاجتماعي في النص وحضور السياسي يجعله أكثر وضوحاً وصراحة ومكاشفة . إن الكتابة عن الاجتماعي ستضطر المبدع إلى أن يكون متردداً، غير واثق ، يوازن بين وجهات النظر ، أكثر عمقاً وأكثر شمولية وإحاطة وأكثر حساسية ، ولكن هذا لم يوجد في الأدب الفلسطيني في الأرض المحتلة مدة طويلة .

كان كتاب السبعينيات والثمانينيات وشعراؤها يعيشون عصر الاحتلال الذي بدا وكأنه لا احتلال ، وكان على النص الأدبي أن يصارح الناس بأهوال المحتل الناعم ورعبه ، فهو يقدم رواتب عالية ويقضم الأرض بوتيرة عالية ، أيضاً .

كان كتّاب السبعينيات والثمانينيات مضطرين إلى الشعارات القريبة والرموز الحية والصور التي تحمل شحنة عاطفية عالية .

كان كلامهم يشبه حياتهم ، وكانت نصوصهم تشبه مدنهم وقراهم التي تتحول إلى « بركسات» عمال ، وحقولهم التي تتحول إلى حقول أشواك ، وبيوتهم التي تهدم وتبنى على شكل مربعات من دون جماليات و تفاصيل ، وأيامهم التي تخلو من المسارح والنشاطات الثقافية والفضاء الكافي . كانت نصوصهم فقيرة من المغامرة ، ومن دون مكافآت وتشجيع ، ومن دون نقد أو تشريح ، كانت تلك النصوص تكتب أشبه بالمنشور السري الذي يريد أن يقول كل شيء بسرعة وبوضوح وبكثير من الصدقية العالية الحارة .

تلك كانت نصوص أولئك الكوكبة من المبدعين الأوائل الذين راكموا تلك النصوص التي قيل فيها إنها خطابية ومتشنجة وتخلو من الجماليات . هل نبرر لهم ؟ لا ، إنّما نحن نقوم بمحاولة أولية لفهم ذلك الأدب الذي شطب من خارطة الإبداع الفلسطيني بهدف أو بلا هدف ، بقصد أو بلا قصد ، ولكن هل هذه هي الصورة كاملة ؟!

أعتقد أننا نظلم هؤلاء بهذا الغرض ، فهؤلاء المبدعون لم يكونوا على درجة واحدة من العطاء ومن المستوى ، فعلى الرغم من الإهمال الطويل وحتى النسيان الكامل ، فقد أصر هؤلاء على الوجود والحياة والاستمرار ، وأصروا على أن يكتبوا بمداد الحبر ومداد الدم والعرق . إن معظم هؤلاء دخل السجن الإسرائيلي ، ما يدل على أن كتابتهم كانت جزءاً من حياتهم اليومية وسلوكهم المعتاد ، وما يعطي تلك النصوص ميزة لا تكاد تكون موجودة عند غيرهم من الكتاب والشعراء العرب ، فقصائدهم «المسطحة» ورواياتهم «الضعيفة» كانت تصور جزءاً من نشاطاتهم العلنية أو السرية . إن إصرار هؤلاء على الوجود والاستمرار دفع منظمة التحرير الفلسطينية إلى أن تتنبه إلى المضامين الثورية والكفاحية للتنظيمات الاجتماعية والنخب الفكرية ، وفي خطوة متأخرة جداً ، تم تشكيل اتحاد الكتاب والأدباء ، وتم دعم بعض المجلات والصحف لتنطق باسم هؤلاء ، وكان أن ولد اتحاد الكتاب الفلسطينيين بعد مخاض عسير ومناقشات كثيرة وخلافات فصائلية ضيقة ، وكان أن ولدت مجلة « الفجر الأدبي » التي ترأس تحريرها الشاعر علي الخليلي ، فاحتضنت الأصوات والتجارب والرؤى ، وأصبح من الممكن التأريخ والتوثيق لذلك النتاج الذي يوصف عادة بالتسطيح ، وهي تهمة صارت تعني أكثر مما توحي به الكلمة جماليا أو تذوقياً . فهذا التسطيح كان حفاظاً على الروح المقاتلة ، وهذا التسطيح كان ضرورياً لتأكيد الهوية ، وهذا التسطيح كان مؤلماً للاحتلال ، أيضاً .

ولأننا لا نوافق على هذا التعبير ، ونعتبر أنه مقصود لشطب مرحلة من مراحل الإبداع في هذه الأرض ، فإننا نقول : إن النصوص التي ظهرت في تلك السنوات إنّما كانت نصوصاً مكتملة الشروط في زمانها ومكانها ، وكانت ضرورة نضالية وجمالية وحياتية في آن معاً .

إن احتواء منظمة التحرير هذه الأصوات ، وتخصيص مكان لها على الخارطة السياسية والنقابية والاجتماعية ، كانا ، أيضاً ، ضرورة سياسية فرضتها ظروف المنظمة في الخارج والداخل معاً ، وقد قام المبدعون الفلسطينيون في الضفة والقطاع بما هو مطلوب منهم تماماً ، فقد حموا الشرعية ودافعوا عنها أمام كل محاولات التشظية والانشقاق والاختلاف ، في موقف يكاد يكون فريداً ومميزاً في تلك الأيام مقارنة بما فعل الآخرون .

والآن ، وبهدوء كامل ، لنحاول أن نحدق في وجه ذلك الإبداع النثري والشعري الذي كتب في تلك السنوات ، ولنحاول ، وبهدوء كامل ، أن نحدق في شَرطي الزمان والمكان والسقوف المتعددة التي حكمت ذلك النتاج .

ألم يكن علي الخليلي مضطراً إلى أن يحمّل قصيدته كل تلك الرموز ، وأن يستغل تلك المجازات والمواربات والمراوغات لينجو بقصيدته ؟!

ألم يكن عبد الناصر صالح أو سميح فرج مضطرين لتجميد «المقنع» الذي صنع تاريخاً مجيداً دون أن يبحث عن صورة في الصحف أو مقابلة في فضائية؟! كان مجرد مقنعاً ، وكانت القصيدة تماماً على مقاسه بالضبط!!

ألم يكن وسيم الكردي مضطراً إلى أن يلوذ بعالم من اللغة المجازية التي تناسب ألوان الرماد كلها ؟! ألم يكن مضطراً إلى أن يعلو بقصيدته ويعتصم بذاته عندما اختلطت الأوراق وتداخلت الخطوط ؟!
ألم يكن أسعد الأسعد مضطراً هو الآخر إلى أن يمزج بين الاجتماعي والسياسي ليصوغ رؤية ما قد نختلف عليها ومعها شكلاً ومضموناً ؟!
ألم يكن المرحوم عزت الغزاوي مضطراً ، أيضاً ، إلى أن يقدس جماعته ليجعل منها سبيكة واحدة مقاوِمة وصلبة غير قابلة للتفتيت ؟!

II

خصوصية الشعر والنقد

الأدب الفلسطيني ، عموماً، والشعر منه ، خصوصاً ، تميَّز أنَّه ذو خلفيات ومرجعيات كثيرة، بسبب الشتات مرَّة، وبسبب الأيدولوجية مرَّة أُخرى، ولهذا فإنَّ الشعر الفلسطيني ليس نسيجاً واحداً أو تجربة واحدة، فالتحديات المختلفة والقضايا المتعدِّدة التي فرضت نفسها على هذا الشعر جعلت منه متعدِّد الأشكال والأساليب والذروات، أيضاً، بشكل يلفت النظر .
ويكاد لا يجمع بين هذا الشعر سوى مقاربته للقضية الوطنية على تفاوت

هذه المقاربة، إذ نجد حقاً أنَّ التجربة الشعرية الفلسطينية في الشتات تختلف اختلافاً بيّناً عنها في الأرض المحتلة. ففي الوقت الذي كانت فيه التجربة الشعرية في الخارج تتبنّى قضايا سياسية وجمالية وشكلية معينة، كانت التجربة الشعرية في الداخل مضطرة ومجبرة على أن تتساوق والواقع الذي يفرض ذاته عليها، وكان الواقع فقيراً ومدقعاً من جهة الجدل العقلي والسجال الثقافي، فزمن الحروب والاضطرابات تقلّ السجالات، ولكن هذا الواقع كان يقدِّم أروع النماذج وأشدها قوة من جهة أشكال التضحيات وأساليب النضال.

كان لا يمكن للشاعر سوى أن ينخرط في ما يجري في الشارع، وكان لا بُدَّ له من أن يبرِّر شعره، أو يبرِّر تميزه، أو، وربَّما كان هذا هو الأدق، كان عليه أن يقدم شيئاً مفيداً، مفهوماً، محرّضاً، سريع التأثير، شيئاً جامعاً، أُغنية تصلح للغناء أو الترديد في الشوارع، كان عليه أن يجعل قصيدته قريبة من أسماع الذين يحملون النعوش أو يستعدون للمواجهة، أو الذين يصرخون أمام الدبابات، فإذا أضفنا إلى ذلك أنَّ الشاعر نفسه كان منخرطاً في العمل السياسي حتى أذنيه، فإنَّ ذلك كان يجعل من قصيدته خادمة لأهدافه السياسية أو التنظيمية.

بكلمات أُخرى، كان الواقع المعيش يجعل من القصيدة غنية بالموسيقى، هادرة بالكلمات، واضحة المعنى، تصلح للضجيج، مناسبة للجموع، تحكي عن ناسها وعن مكانها، كانت تشبه عملية تسجيل اللحظات

الخالدة، يتماهى فيها الفرد / الشاعر مع أناسه جميعاً، فهو يشبههم ولا يزيد عليهم ولا ينقص، صوته هو صوتهم، ومشاعره هي مشاعرهم، لا ذاتية زمن الحروب، ولا فردانية لحظة المواجهة، هناك النفَسُ الجماعي والروح الجماعية، الحامية والحافظة، الأقوى والأكثر صموداً وبقاء واستمراراً.

إنَّ القصيدة التي ولدت في الأرض المحتلة بعد احتلال العام (1967) كانت، بصورة أو بأخرى، قصيدة الجماعة وقصيدة المكان وقصيدة التحريض بشكلها المهم، وبهذا الصدد يمكن القول إنَّ الواقع كان يقدم نماذج مذهلة في عبقريتها وتعبيرها عن روح الجماعة، الأمر الذي جعل من القصيدة، بشكل عام، تظل أقل بهاءً وحضوراً من النموذج، بمعنى آخر: ليس هناك معادل موضوعي للحياة أبداً، الفنُّ صورة مختصرة فيها حذف كثير وفيها اقتصاد كثير وفيها تعمُّد كثير، وبينما نقدم الحياة نفسها مرَّة واحدة بكامل التفاصيل مشعلة جميع الأحاسيس، فإن الفنّ يكتفي من كلّ ذلك البهاء بإطار واحد يحاول تجميع الصورة الأُولى.

وبعد العام (1992)، وما جرى من زعزعة المفاهيم وموت بعض القديم وميلاد جديد آخر، وتغير المزاج واللغة والمصطلح والمرجعيات، وما طرأ على المجتمع الفلسطيني من تغيرات بنيوية، فإنَّ القصيدة الفلسطينية في الداخل - حيث طُعّمت بأصوات وتجارب جديدة عليها - واجهت قضايا ومسائل أخرى مختلفة، كان عليها أولاً أن تتوازن؛ بمعنى البحث

عن لغة جديدة وآفاق جديدة ومرافئ للعودة إليها، وكان عليها أن تردَّ بشكل أو بآخر على تحديات من نوع ثقافي لم تتعوَّد عليه، كالعلاقة مع الآخر، والعلاقة مع السلطة، وكان عليها، أيضاً، أن تقارن نفسها بالتجارب العالمية التي ذهبت بعيداً بالتجربة الشعرية.

بعد العام (1992)، كان هناك مخاض على المستوى السياسي والاجتماعي، والشعري، أيضاً، وعاد الأمر كلُّه كما كنَّا ذات يوم في الخمسينيات من القرن الماضي، حيث وقع الشعر في حيرةٍ من أمره، فهل يندب الوطن الضائع أم يغني للفارس القادم؟!

ما نريد أن نصل إليه من هذا العرض هو أن المقاربة النقدية بما تتضمَّن من عمليات تحليل وتفكيك وتقييم للشعر الفلسطيني، خصوصاً شعر الداخل (الضفة والقطاع والأرض المحتلة العام 1948)، يجب أن تكون نابعة من البيئة التي صدر منها هذا الإبداع الشعري، بمعنى أنَّ النقد يجب أن يستخدم المصطلحات ذاتها والمزاج ذاته والقضايا ذاتها التي تناولها النص المقارَبْ.

بين النقد والإبداع وشائج بنيوية، عضوية، روحية عميقة، فلا يمكن استيراد نظرية نقدية عشوائياً لفهم نتاج له خصوصيته الشديدة أو مقاربته، النظرية النقدية ليست مفتاحاً لكلِّ الأبواب، وليست مركبة تسير في كل طريق.

النقد مكمِّل ومضيء للنص الإبداعي، وليس معارضاً أو متعالياً أو متعالماً

عليه، الذائقة يصنعها النص ولا يضعها النقد، والسقف الجمالي يرفعه النص ولا يرفعه النقد.

إن القصيدة الفلسطينية في الداخل، التي حاولت ما حاولت، وعالجت ما عالجت، وتوصلت إلى ما توصلت إليه - بغض النظر عن جماليته أو عدمه، هي الحالة التي يجب دراستها، والتعامل معها، والمقاربة لها.

ولا يمكن ظلم القصيدة الفلسطينية بمقارنتها بما وصلت إليه قصائد الأوروبيين أو الأمريكيين.

وعليه، فإنَّ المقاربة النقدية لمثل هذا الأدب الخاص، المحكوم بالزمان والمكان والظرف التاريخي والحضاري، يجب أن تنبع من داخله، ومن شروطه، ومن نسقه العام.

الناقد الدكتور حسام الخطيب أشار إلى ذلك بوضوح شديد قائلاً: إن من الظلم والتعسف والتجني أن نحاسب أدب الأرض المحتلة بنظريات نقدية غربية كانت نتاج نص إبداعي مختلف تماماً، ولد ونما وترعرع وتطوَّر في ظرف تاريخي مختلف، فالنظرية النقدية التي صمِّمت خصيصاً لنص معين لا تصلح إطلاقاً لنص آخر مختلف عنه في المرجعيات وفي الظرف وفي الهدف.

إنَّ المقاربة النقدية البنيوية التي تفترض في النص عدة نصوص، وإيقاعات وعلاقات خفية على مستوى المفردة والحرف، والتي تفترض أن النص مجرد اقتراح قابل للنقض والانقلاب، وأنَّه منفصل عن كاتبه،

قد لا تصلح أبداً لفهم القصيدة الفلسطينية التي تحاول أن تعبِّر عن العالم، وأن توضح موقفها منه، وأن تلد هكذا نهائية ومطلقة.

كما أنَّ المقاربة التفكيكية لمثل هذه القصيدة قد تكون أبعد ما تكون عن الصواب، فالتفكيك معني بالطبقات التي تتوارى أو تختفي خلف الطبقة الأولى، في محاولة للإمساك بالمعنى واللامعنى معاً، وكأنَّ الفن محاولة عبثية لفهم العالم، أو مخالفته، أو الاحتجاج عليه، ولكن القصيدة الفلسطينية لا تحاول ذلك عملياً، إنَّها أُغنية جماعية تريد أن ترى نفسها ضمن هذا العالم وأن تحفر فيه مكاناً.

ويمكن القياس على هذا مختلف النظريات النقدية الغربية التي تطبَّق قسراً على الأدب العربي، عموماً والفلسطيني، خصوصاً.

فالنظريات النقدية الغربية، التي تصمَّم، خصيصاً للنصوص التي تصدر هناك، تجاوزت التعبير عن «الخارج» - بمعنى الصراع مع العالم بعد أن تمَّت السيطرة عليه من خلال التكنولوجيا - إلى التعبير عن «الداخل» - بمعنى الصراع الجوَّاني حيث العالم هنا ما زال غامضاً ولم تتم السيطرة عليه -، فيما نحن - ومن خلال إبداعاتنا - مازلنا نصارع «الخارج» المتمثل بكل شيء، ابتداءً من الاحتلال العسكري وانتهاء بعمليات التنمية الزراعية، نحن ما زلنا نكتب في «الخارج»، فكيف لنظرية نقدية صُمِّمت أو تولَّدت عن نص داخلي أن تقارب نصاً خارجياً؟!

ولكن لا بُدَّ من منهج نقدي يقارب إبداعاتنا؟! فالنقد مكمّل ومضيء

ويخلق السجال الحضاري، ولا بد من محاولة لفك مغاليق هذا الإبداع من منطلق أن النقد هو المؤصّل والمقعّد النظري لما تم التوصل إليه على المستوى الروحي و الوجداني والحضاري.

في محاضرته التي ألقاها بمؤتمر الرواية العربية المنعقد في الرباط في (27/ 9/ 2003) ، اقترح الدكتور صبري حافظ مدخلاً سوسيولوجياً لفهم ظاهرة الأدب المصري الجديد الذي ظهر بعد التسعينيات، وربط بين عشوائية المدينة وهلامية الرواية، وبين تحولات السياسة المصرية ، وبين انعدام البطل أو هامشيته . وإذا كان المدخل السوسيولوجي مدخلاً يبدو ظاهرياً أنَّه مقنع، فإنَّنا نرى أنَّ ذلك لا يكفي في حالتنا الفلسطينية، فعلى الرغم من انطفاء المدن في تاريخنا الفلسطيني الحديث، واختفاء الريف، وتهشيم المجتمع المدني في معظم مراحله، وسحق كامل الرموز الوطنية على المستوى الرسمي، فإن ذلك كلَّه لا يجعلنا نقارن بين الدمار المنظم الذي لحق بمجتمعنا والإبداعات الشعرية عندنا، فقصيدتنا تجاوزت ذلك الدمار بكثير، لكننا لن نغامر بعدم الإشارة إلى المدخل السوسيولوجي المقترح لفهم الظاهرة الشعرية ومقاربتها، أو عدم الإشادة به.

إنَّ المنهج الخاص، والخاص جداً، الذي نحاول الإمساك به أو الإشارة إلى ملامحه يتمثل في أبعاده الثلاثة : السيكولوجية، والتاريخية، والسوسيولوجية، هذه الأبعاد التي تضمّها روح الجماعة، حيث تسيطر هذه الروح طيلة الوقت على معظم النتاج الشعري الفلسطيني، وكأنَّها كلمة السرِّ في ذلك النتاج.

إن البعد السيكولوجي الذي نشير إليه سيكون كاشفاً للحرمان والتوق الأبدي ، وحتى التشوُّه الذي يلحق بالمحروم والمظلوم والمُدان والمطارد، فيما سيكون البعد التاريخي ، بما يمثِّل من تراث وإرث روحي ووجداني، مرشداً لنا لاعتبار القصيدة هي الطبقة الأخيرة من طبقات ذلك المخزون الهائل من الشعر والفخر والنصر والنماذج المدهشة، أمَّا البعد السوسيولوجي فسيكون هادياً لنا لإدراك ذلك الكم الكبير من التشوّه الذي لحق بالبنية الفلسطينية الفردية والجماعية ، وكيف تمَّ هضم ذلك جمالياً وإبداعياً.

المنهج الخاص يعني فهم الظاهرة من الداخل وليس من الخارج، ولأنَّ الإبداع الشعري الفلسطيني في الأرض المحتلة، كان إلى هذه الدرجة خاصاً ومختلفاً، كان لا بُدَّ للمنهج النقدي أن يكون، أيضاً، إلى ذلك الحدِّ خاصاً ومختلفاً.

إنَّ الشعر المقاوم ليس اختراعاً فلسطينياً بالتأكيد، لكنه ارتبط بهم مدة طويلة من الزمن وقد يطول الأمر دائماً، والشعر المقاوم يتميَّز بأنَّه يقوم على ركيزتين مهمتين هما : الأرض والتاريخ، وهاتان ركيزتان خارجيتان تقومان أساساً على الفهم الفردي الذي لا يمكن له أن يخالف روح الجماعة أبداً، والشعر - كلُّ شعر - إذا لم يعبِّر عن روح الجماعة في زمن ما ومكان ما فإنه يتحوَّل إلى مجرد تسلية لصاحبه. من هنا، فإنَّ مقاربة القصيدة الفلسطينية من الداخل والخارج معاً ، حسب افتراضنا ، ستجعلنا أقدر على الفهم والمشاركة ومن ثمَّ التذوق.

الشعر الفلسطيني الحديث

في الأرض المحتلة

***1948* ، *1967* ، وفي الشتات**

بالنسبة للفلسطينيين، فإن الخامس عشر من أيار العام (1948) والخامس من حزيران العـــام (1967) يومان لا يمكن نسيانهما، أو إسقاطهما من الذاكرة، ففي الخامس عشر من أيار العـام (1948)، استطاعت الحركة الصهيونية أن تطرد مئات الآلاف من الفلسطينيين من مدن حيفا ويافا وعكا وعشرات المدن والقرى الأخرى، لتقيم دولةً على أكثر من ثلاثة أرباع فلسطين التاريخية، سرعان ما اعترف العالم بها ضمن قرار دولي نفّذ شقه المتعلق بإسرائيل، فيما لم يتم تطبيق شقه الآخر المتعلق بإقامة دولة للفلسطينيين حتى الآن. قيام إسرائيل في ذلك التاريخ كان على حساب تطور الشعب الفلسطيني ونمائه، والذي وقع تحت الوصاية العربية فيما بقي له من أرض في الضفة الغربية وقطاع غزة. ولكن، وبعد تسعة عشر عاماً فقط، وفي الخـــامس من حزيران العام (1967)، استطاعت إسرائيل أن تحتل ما بقي من فلسطين بقوة السلاح، وتعرّض الشعب الفلسطيني – للمرة الثانية في أقل من عشرين عاماً – إلى القتل والطرد والدمار.

إن الاحتلال الإسرائيلي لم يكن هدفه إنقاذ الفلسطينيين من الوصاية

العربية، أو من الفقر، أو من الجهل، أو من المرض، ولم يكن هذا الاحتلال منقذاً، أو سنداً، أو صديقاً، بل كان هذا الاحتلال يهدف إلى إحلال شعب مكان شعب، وإلى إضعاف العلاقة بين الفلسطينيين وأرضهم، وقتل إرادة الفلسطينيين في التحرر والانعتاق، وبناء مصير خاص قائم على الاختيار الحر. ولهذا، سرعان ما بدأ هذا الاحتلال عمليات استيطان كبرى في الضفة الغربية وقطاع غزة، والاستيطان بمعناه المجرد ليس مصادرة للأرض فقط، وإنما إفقار وتجويع وطرد لأصحاب الأرض الفلسطينيين. ولهذا، فإن هذه العمليات جوبهت بانتفاضات وثورات مختلفة، استطاعت إسرائيل، بشكل أو بآخر، قمعها أو تحجيمها بالقوة العسكرية، الأمر الذي أدى إلى استشهاد عشرات الآلاف، وجرح مئات الآلاف، واعتقال عدد مشابه أو نفيه، منذ العام (1967) وحتى هذه اللحظة.

إسرائيل – كقوة محتلة ومرفوضة من المحيط – اتّبعت أسلوب الهجوم والانتقام واستعمال القوة المفرطة في تعاملها مع الشعب الفلسطيني، من جهة، ومع دول الجوار، من جهة أخرى، بحيث صارت عقدة الأمن المفقود هي هاجس هذه الدولة، والتي خاضت أكثر من ثماني حروب في أقل من خمسين سنة، ما يدلّل على حجم عدوانيتها، أو يشير إلى مدى الرفض الذي تجابَه به من قبل شعوب الدول المحيطة، أو لانشغالها بحروب الإمبريالية التي تخدمها.

إسرائيل لم تقمع الشعب الفلسطيني في الضفة الغربية وقطاع غزة فقط، بل لاحقت الفلسطينيين في المنافي ، أيضاً، فهاجمت مخيماتهم في الأردن ولبنان وسوريا، واغتالت قادتهم في دول أوروبية وعربية مختلفة، وعملت جاهدة على طمس الهوية الثقافية لهم من خلال ادّعاء ثقافة المنطقة وسرقة رموزها، وخلق العدمية القومية في صفوفهم.

ولم تغير اتفاقية المبادئ بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل العام (1993) من الأمر شيئاً ، فازدادت فجأة وتيرة الاستيطان في الأراضي الفلسطينية، وازداد تطرف الشارع الإسرائيلي ، أيضاً، ما أدى إلى مقتل رئيس الوزراء الإسرائيلي إسحق رابين على أيدي المتطرفين اليهود، وذلك للمرة الأولى في تاريخ اليهود الحديث.

اتفاقية مبادئ السلام بين منظمة التحرير وإسرائيل - وبسبب من بنيتها الغامضة ونصوصها المطّاطة - استطاعت أن تقدم لإسرائيل (الدولة الأقوى) أسباباً لاختراقها، ومن ثم تجاوزها بعد اندلاع انتفاضة الأقصى العام (2000)، إذ اتّضح من هذه الاتفاقية أن هدفها أمني ليس إلا - حسب التفسير الإسرائيلي على الأقل -، ولأن السلطة الوطنية الفلسطينية لم تتحول إلى شرطي يأتمر بأمر إسرائيل، تقمع شعبها وتذلّه، فقد انتهجت إسرائيل ومنذ اليوم الأول لانتفاضة الأقصى في التاسع والعشرين من أيلول العام (2000) تدمير كل شيء بناه الشعب الفلسطيني ، ابتداءً من المدارس، ومروراً بالمستشفيات، وانتهاءً بمراكز الشرطة والإدارات الحكومية الفلسطينية.

ولم تكتف إسرائيل بهذا، بل شنت هجوماً على الشرعية الفلسطينية، فشككت في الديمقراطية الفلسطينية ، واتهمت المجتمع الفلسطيني بأنه لا ينتج إلا إرهاباً، وأنه غير قادر على التواصل أو الحوار، أو التعامل بحضارية، وهي تهمة وجدت مَن يصغي إليها بعد تفجيرات واشنطن ونيويورك، إذ حاول بعض المتعصبين والمرضى اختراع أعداء وهميين وإيجاد مراكز - ضعيفة - يمكن مهاجمتها وضربها من دون خسارات، بل على العكس من ذلك، فإن ضربها والهجوم عليها يحقق مكاسب أيدولوجية واقتصادية، أيضاً.

ولسبب ما، فقد طولب الشعب الفلسطيني بتقديم حسن النوايا والتوقف عن المقاومة، فيما لم يُطالب الاحتلال بالرحيل، أو حتى التوقف عن عقاب الشعب الفلسطيني جماعياً ولمدد تمتد إلى سنوات، ولم يحدث في تاريخ الصراعات الدولية أن عومل الاحتلال بهذه النعومة والرخاوة والبحث عن مسوغات له كما عومل الاحتلال الإسرائيلي، الذي ترى بعض الأطراف فيه أنه إرادة إلهية !!

إسرائيل، هذه التي قامت بإرادة إمبريالية لتؤدي دوراً وظيفياً للقوى الكبرى، ولم تقم لحل مشكلة «الإسكان» لليهود، قامت وتستمر بدعم دولي غربي بالأساس، هي الدولة الوحيدة تقريباً التي رفضت وترفض تنفيذ قرارات مجلس الأمن الدولي، فقد رفضت حتى الآن تنفيذ (28) قراراً دولياً، وهي الدولة الثانية - بعد الولايات المتحدة الأمريكية -

التي ترفض الانضمام إلى كثير من الهيئات الدولية : النووية والحقوقية والإنسانية ، التي تهدف إلى جعل العالم أكثر أمناً ونظافة وخيراً ، هذه الدولة بالذات هي التي يواجهها الفلسطينيون يومياً بلا أسلحة ، وبلا تحصينات عسكرية ، بل يواجهونها بصدورهم العارية وقلوبهم المليئة بالإيمان .

هذا هو الواقع الذي يعيشه الفلسطينيون على أرضهم ؛ احتلال ورعب وخوف ، خوف على الجسد ، وخوف على البيت ، وخوف من الحركة ، وخوف من المستقبل ، لا شيء مضموناً في بلادنا ، كل شيء مكشوف ولا يمكن حمايته ، غياب الأمان يسمّم الحياة ويجعلها كريهة ، وكراهية الحياة تدفع إلى كل المشاعر الخشنة والفظّة وغير السوية ، أيضاً ، ولهذا كان الاحتلال عملاً غير إنساني ، لأنه يخرّب التوازن النفسي والروحي والبيئي .

بعد العام (1967) ، أي بعد احتلال فلسطين بالكامل ، تحول الوطن إلى فكرة ، وتحول الشعب الفلسطيني إلى كيان متشظ غائم ، أيضاً ، بمعنى أن فلسطين – كجغرافيا – التبستْ تماماً ، فيما صار الشعب الفلسطيني موزعاً في أراضٍ ومنافٍ كثيرة ، فهناك فلسطينيون يعيشون في الأراضي التي احتلت العام (1948) وهؤلاء حملوا الجنسية الإسرائيلية ، وهناك فلسطينيون يعيشون في الأراضي التي احتلت العام (1967) وهؤلاء لا يتمتعون بأي حقوق مدنية أو سياسية – أجبر هؤلاء على دفع الضرائب

لإدارة الاحتلال دون أن يتلقوا بدلاً منها خدمات أو تمثيلاً سياسياً - ، وهناك فلسطينيون يعيشون في مخيمات توزعت في كل من الأردن وسوريا ولبنان وفلسطين، يحملون وثائق مؤقتة من الدول التي يعيشون فيها، وبعضهم لا يحملها، وبعضهم يتمتع بحقوق متساوية وبعضهم لا يحصل على كثير من الحقوق، يعانون الفقر والإهمال والمرض، وينتظرون ما تجود به عليهم وكالة الغوث الدولية.

غياب الأرض وتشتت الشعب أفرزا تبايناً في وجهات النظر والاجتهادات والمرجعيات، وهو ما عبّرت عنه منظمة التحرير الفلسطينية التي تم إنشاؤها العام (1964) بتشجيع ودعم من الأنظمة العربية، فما إن سيطرت عليها الفصائل والحركات الثورية الفلسطينية العام (1967)، حتى صارت هذه المنظمة الوطن المعنوي للشعب الفلسطيني؛ تعبّر عن آماله الوطنية وأهدافه القومية ضمن هذه التعددية الفكرية والعقدية.

بعد العام (1967)، واحتلال فلسطين بالكامل، بدأت مرحلة جديدة من النضال الفلسطيني داخل الأرض الفلسطينية المحتلة وخارجها.

على هذه الخلفية، انطلق شعر جديد مختلف عما سبقه من أشعار، وحول هذا الشعر، أُقدّم هذه المقترحات لقراءة النصوص الشعرية التي ظهرت بعد العام (1967) ومقاربتها، وماهي إشكالاتها وقضاياها ورؤاها الجمالية وأسئلتها الوجودية.

فالهزيمة الصاعقة التي حلّت بالفلسطينيين ، خصوصاً ، والعرب عموماً، باحتلال الضفة الغربية ، بما فيها القدس ، وغزة وهضبة الجولان السورية وجزيرة سيناء المصرية ووادي عربة الأردني كانت بمثابة انهيار للفكرة القومية والوحدوية العربية، وبمثابة انهزام للنظام العربي بشقّيه : السائر في فلك الاتحاد السوفييتي، والسائر في فلك الإمبريالية الأمريكية. ولهذا ، كانت هزيمة العام (1967) هزيمة للنظام والخطاب العربيين ، وللفرد العربي ، أيضاً ، هزيمة عارية من دون مقدمات .

كان الإحساس بالهزيمة باهظاً إلى درجة الموت، وهو ما عبر عنه الشعر الفلسطيني في تلك المرحلة على قلّته، وكانت الشاعرة فدوى طوقان هي من بكت تلك الهزيمة حتى النخاع، تقول وهي تبكي على بيت نسفه الحاكم العسكري الإسرائيلي في مدينة نابلس العام (1967) :

كانت الخمسة والستون عام
صخرة صماء تستوطن ظهره . . (تقصد هنا صاحب البيت واسمه حمزة)
حين ألقى حاكم البلدة أمره :
«انسفوا الدار وشدّوا
ابنه في غرفة التعذيب» ألقى
حاكم البلدة أمره
ثم قام
يتغنى بمعاني الحب والأمن
وإحلال السلام .

المهزوم عادةً ما يميل إلى تأنيب نفسه ومحاسبة ذاته، ويرغب في تقليل شأنه، ويميل إلى البكاء كنوع من أنواع الشفقة على الذات. وقد كانت المفاجأة الحقيقية أن الشعراء الفلسطينيين الذين يحملون الجنسية الإسرائيلية هم الذين رفعوا لواء المقاومة والصمود على الأرض الفلسطينية، فهذا محمود درويش يردّعلى بكائيات فدوى طوقان، ويرد على هزيمة (1967) بالقول :

لم نكن قبل حزيران كأفراخ الحمام
ولذا، لم يتفتت حبنا بين السلاسل
نحن يا أختاه، من عشرين عام
نحن لا نكتب أشعاراً
ولكنا نقاتل .

محمود درويش لم يكن الوحيد ، فقد كان هناك الشعراء : سميح القاسم وحنا أبو حنا وتوفيق زياد وراشد حسين وآخرون، وعلى عكس المتوقع – باعتبارهم يعيشون في كنف الدولة المحتلة – هم الذين رفعوا لواء مقاومة الهزيمة والرد عليها .

وإذا كان الشعراء العرب قد غرقوا في تأنيب الذات والشعور بالهزيمة الساحقة، كما فعل نزار قباني في سوريا، فإن النزر القليل من شعرائنا فعل شيئاً مشابهاً، ولكن ذلك لم يستمر طويلاً، إذ سرعان ما ظهر

الفدائي الفلسطيني وانطلقت المقاومة الفلسطينية داخل الأرض المحتلة وخارجها، كرد سريع ومباشر على الاحتلال الإسرائيلي.

سرعة ظهور المقاومة وإنجازاتها على الأرض، أنقذتا القصيدة الفلسطينية من الميل إلى البكاء والشفقة على الذات، إذ أخذت هذه القصيدة على عاتقها مهمة النشيد للتضحية والفداء والمقاومة، ولكنها - وعلى رغم هذا المضمون الأساس - حملت معها، أيضاً، بعداً فكرياً واجتماعياً تمثل في اليسارية، والدعوة إلى تغيير البنى الاجتماعية التي أدت إلى الهزيمة الساحقة.

كانت القصيدة الفلسطينية التي ظهرت بعد الاستفاقة من الذهول قصيدةً أُلقيت عليها مهمة النهوض من الرّكام والظلام والاستكانة، بل كان عليها أن ترد على الاحتلال الإسرائيلي، من جهة، وعلى مسببات الهزيمة وظروفها، من جهة أخرى، يعبّر عن هذا الشاعر مريد البرغوثي، مشيراً إلى الجهتين: الهزيمة والعزيمة، في قصيدة له العام (1972):

جَبينكِ قلعة المهزوم يا حبي فضميني
أعيدينيِ إليك لأبدأ الأيام ثانية! أعيديني!
وهاتي كفك الحقلي يا حبي وداويني
فإني سيفك المكسور والملقى على الطين
وإني اليوم مهزوم
ولكني فلسطيني.

هذه القصيدة احتفلت بالفدائي باعتباره الصورة النقيضة للنظام والخطاب والإنسان المهزومين، تحول هذا الفدائي إلى أسطورة حقيقية كان لها أصداء واقعية. يقول محمود درويش راسماً صورة مبكرة للفدائي الشهيد في العام (1970) :

النّدى والنار عيناه
إذا ازددت اقتراباً منه غنى .

ويقول عنه، أيضاً :
آه سمّه كما شئت شهيداً
غادر الكوخ فتى
ثم أتى ، لما أتى
وجه إله !!

صورة الفدائي – الذي له وجه إله – كانت صورة تفضح النظام السياسي والاجتماعي العربي المحيط الذي أحبط الثورة الفلسطينية ، وأحبط الآمال العريضة التي علّقت على تلك الثورة. يقول عز الدين المناصرة في العام (1969) :

عرّجت صوب مدائن النوم الكسيحة أستغيث
الكل أقسم أن ينام

قَدَمٌ على قدم ومثلكُ لا ينام
حجر هو المنفى وصوان وشوك من رخام
تمر وتفاح وبرقوق الشآم
بيني وبينك بعض ما هتف الحمام
أمّا زمان الآخرين هو الكريه
يا هذه المدن السفيهة إنني الولد السفيه
لو كنت أعرف أن نارك دون زيت
لو كنت أعرف أن مجدك من زجاج
ما أتيت !!

هذا التناقض بين صورة الفدائي النموذج و«المدن الكسيحة» جعل الفلسطيني يشعر دائماً أنه مطعون من الخلف وأنه غير محمي، خصوصاً أن ذلك ترافق مع ضرب الثورة الفلسطينية والتضييق عليها من قبل بعض الأنظمة العربية ، إما بالفعل أو بالموافقة الضمنية أو الصريحة .

هذا الشعور بالانكشاف وعدم الحماية المترافقة مع المواجهة المستمرة مع المحتل دفع الشاعر الفلسطيني إلى الالتجاء إلى البحث عن ملاذات وملتجآت وجدانية وفكرية يعتصم بها، فمنهم من ذهب إلى الجذر الكنعاني - باعتبار أن الكنعانيين هم أول من سكن فلسطين وأنشأ فيها حضارة ما زالت رموزها الثقافية واللغوية حاضرة حتى يومنا هذا -،

ومنهم من ذهب إلى الشيوعية ليرى فيها البعد الفكري والحلف السياسي في مواجهة الإمبريالية الأمريكية، ومنهم من التجأ إلى فكر قومي طوباوي غير موجود، ومنهم من التجأ إلى المقولة الدينية التي ترى في فلسطين أرض صراع بين الحق والباطل إلى أبد الآبدين.

هذا الاختلاف في المرجعيات التي انطلقت منها القصيدة الفلسطينية في مختلف أماكنها - داخل الوطن وخارجه - جعل هذه القصيدة متنوعة ومتعددة إلى أبعد حدود الاختلاف، لا يوحّد فيما بينها سوى الحنين والغناء لفلسطين.

فهذا سميح القاسم الذي يعيش في الرامة القريبة من الناصرة، ويحمل الجنسية الإسرائيلية المفروضة عليه فرضاً، يتغنى بقوميته العربية ويدعو إليها، فيما يتغنى توفيق زياد، رئيس بلدية الناصرة، بوحدة العمال والمقهورين والمظلومين استجابة لمبادئه الشيوعية، أما محمود درويش الذي كان يعيش في حيفا فيؤمن بإمكانية السلام حتى مع قاتليه، أما الشعراء الفلسطينيون الذين يعيشون في المنافي، فبعضهم يرى في جذره الكنعاني هوية وجدانية يعتصم بها، كما فعل عز الدين المناصرة الذي كان يعيش في الأردن، أما مريد البرغوثي الذي يعيش في مصر، فقد رأى في ذكرياته وعوالم طفولته التي عاشها في الوطن، بما فيها من بكورية وطزاجة ودهشة، صورة لوطن متخيل لا وجود له إلا في ذهنه، أما أحمد دحبور الذي كان يعيش في سوريا، فقد التجأ إلى عالم

تراجيدي يؤثثه بحنين لا ينتهي لتصوير فاجعته بغياب الوطن، وكذلك فعل وليد سيف، ومحمد القيسي الذي عاش في مخيمات اللاجئين في الأردن، إذ مزج بين صورة الأم وصورة الوطن.

أما الشعراء الفلسطينيون الذين عاشوا في الضفة الغربية وقطاع غزة، فقد أخذوا وقتاً أطول قليلاً ليقولوا شعراً، وذلك بسبب الرقابة العسكرية الإسرائيلية الصارمة التي ماطلت في صدور الصحف والمجلات الفلسطينية الوطنية، من جهة، وضيّقت عليها فيما تنشره، من جهة أخرى، ولكن هذا الشعر ما لبث أن فرض ذاته على المشهد الأدبي في الضفة والقطاع، وكان هذا الشعر - بحكم مواجهته اليومية مع المحتل الإسرائيلي - شعراً موارباً، بمعنى وضوح رمزه ووضوح هدفه وقربه وقدرته على التثوير والتحريض، كانت المواربة تأتي من حيث عدم الإشارة صراحة إلى العدو المباشر، ولهذا كان هذا الشعر يحتفي بالأرض والصمود والاتكاء على الرموز الثقافية والدينية والقومية لتعبئة الجماهير وتحفيزهم ومدّهم بأسباب المقاومة والتواصل، فهذا عبد اللطيف عقل ينشر ديواناً بعنوان: «الأطفال يطاردون الجراد» في العام (1976)، لا نجد فيه إشارة واضحة إلى المحتل الإسرائيلي بقدر ما نجد الرموز الدالة عليه، من جهة، والرموز المقاومة له، من جهة أخرى، وهو ما نجده، أيضاً، في الدواوين التي ظهرت في منتصف السبعينيات للشعراء: علي الخليلي وأسعد الأسعد وفوزي البكري وإبراهيم قراعين وأحمد

عبد أحمد وخليل توما وليلى علّوش وجمال سلسع وعطا الله قطوش وغيرهم. كانت قصائد هؤلاء - باعتبارهم يعيشون تحت احتلال عسكري شرس وقاس - تتميز بمباشرتها وقربها ووضوح رمزها ومضمونها العالي والظاهر، من دون الاحتفال بجماليات القصيدة أو الاحتفاء بالشكل الفني لها. كانت القصيدة جزءاً من سياق عام مقاوم لوجود المحتل وسياساته وأفعاله على الأرض.

يمكن القول والحالة هذه: إن القصيدة الفلسطينية التي ولدت ونمت وتطورت في أراضٍ مختلفة، واتكأت على خلفيات ومرجعيات فكرية وجمالية مختلفة، لم يوحّد بينها سوى الحنين للوطن ليس إلا، ذلك أن هذه القصيدة كان عليها أن تواجه تحديات وجودية وجمالية حيث وجدت، فالقصيدة الفلسطينية داخل الأرض المحتلة العام (1948)، كان عليها أن تقف وأن ترد على القصيدة الإسرائيلية، وأن تتأثر بها وأن تنتبه لوجودها، وهذا ما فعله محمود درويش - قبل أن يغادر الوطن إلى المنفى، وهو ما فعله، أيضاً، توفيق زياد وسميح القاسم وحنا أبو حنا وسالم جبران وراشد حسين قبل أن يغادر الأخير الوطن إلى المنفى، أيضاً. يقول محمود درويش في قصيدة له بعنوان: «المزمور الحادي والخمسون بعد المائة» في ديوانه «العصافير تموت في الجليل» الذي صدر العام (1969):

«أورشليم» التي ابتعدت عن شفاهي

المسافات أقرب
بيننا شارعان وظهر إله
وأنا فيك كوكب
كائن فيك، طوبى لجسمك المعذب.

في تلك الأعوام، أي بعد احتلال القدس العام (1967)، شاعت قصيدة «أورشليم التي هي من ذهب»، التي كتبها أحد كبار الشعراء الإسرائيليين، وتم تلحينها وغناؤها. القصيدة الفلسطينية التي ظهرت ونمت وتطورت داخل «إسرائيل» كانت مضطرة إلى أن تتناول مواضيع القصيدة الإسرائيلية - فكلاهما يتحدثان عن المكان ذاته وعن القضايا ذاتها، وكان على هذه القصيدة الفلسطينية بالذات أن تتحدث عن حب المكان وعن حب الجماعة من دون أن تنغمس في العنصرية أو اللاإنسانية أو أن تدعو إلى ما هو لا إنساني. كانت مهمة هذه القصيدة صعبة جداً، إذ كان عليها أن تقاتل عدوها بشرف لا يتمتع به مثل هذا العدو. كان على هذه القصيدة أن تحاول كسب الإسرائيلي إلى جانبها - باعتبارها تمثل صرخة المظلوم والمقموع والمحتل -، وكان عليها أن تتحول إلى ما يشبه العقيدة الإنسانية التي ترى أن الإسرائيلي والفلسطيني في خندق واحد ضد الظلم والقتل والمصادرة، ولهذا السبب، دعت هذه القصيدة، إما بشكل جزئي أو كلي، إلى فكرة التعايش والمساواة والحق

والعدل والبحث عن نقاط مشتركة مع هذا العدو، ولأن هذه القصيدة تحمل مضمونها، أو لأنها مجبرة على أن تحمل هذا المضمون، فإن ترف الاهتمام بالجماليات كان قليلاً. هذا توفيق زياد، الذي كان عضواً في الكنيست الإسرائيلي ومن ثم رئيساً لبلدية الناصرة، يكتب هذه القصيدة العام (1968):

أنا إنسان بسيط
لم أضع يوماً على كتفيّ مدفع
أنا لم أحفظ زناداً
طول عمري
أنا لا أملك إلا
بعض موسيقى توقّع
ريشة ترسم أحلامي
وقنينة حبر
أنا لا أملك حتى خبز يومي
وأنا بالكاد أشبع
إنما أملك إيماني الذي لا يتزعزع
وهوىً يكتسح الكون، لشعب يتوجع.

هذا المضمون الذي نراه يتكرر في معظم القصائد الفلسطينية التي كتبت داخل «إسرائيل» - بشكل يزيد أو يقل - حاول أن يقدم صورة «مقبولة»

بمعنى أن الفلسطيني في «إسرائيل» هو صاحب البلاد الأصلي ، من ناحية ، وأنه مجبر على التعايش مع «دولة الإسرائيلي» ، من ناحية ثانية . مثل هذه القصيدة التي كان عليها أن توفق بين التاريخ والسياسة ، وبين الحق والواقع ، وبين المستحيل والممكن ، دفعت الشاعر محمود درويش إلى أن يدفع بقصيدته إلى آفاق وجدانية ومعرفية وجمالية تصهر مثل هذا الواقع الفانتازي ، فهو عندما يقع في حب فتاة يهودية تدعى «ريتا» يكتب لها قصيدة «ريتا أحبيني» وينشرها في ديوان له صدر العام (1969) :

في الحلم ، شفاف ذراعك
تحته شمس عتيقة
لا لون للموتى ، ولكني أراهم
مثل أشجار الحديقة
يتنازعون عليك
ضميهم بأذرعة الأساطير التي وضعت حقيقة
لأبرّر المنفى ، أسند جبهتي
وأتابع البحث الطويل
عن سر أجدادي ، وأول جثة
كسرت حدود المستحيل .

الحب بين رجل وامرأة يكشف للشاعر تلك العلائق المركبة بين قوميتين يفصل بينهما «مستحيل» صنعه التاريخ والموتى والأساطير .

أما القصيدة الفلسطينية التي نمت وتطورت في المنفى، منذ كان من مسؤولياتها الدعوة إلى الثورة والمقاومة ، من جهة، والانشغال بهموم القصيدة العربية الوجدانية والجمالية ، من جهة أخرى، فكانت تحدياتها مختلفة ومتنوعة، إذ كان على هذه القصيدة أن تحمل مضمونها الفلسطيني ضمن شروط المنفى وسقوفه الثقافية والسياسية والجمالية .

قصيدة المنفى ولدت بعيداً عن وطنها، فضجّت بالحنين والرؤى والأخيلة، واتخذت لنفسها معالجات وأشكالاً وأساليب، بتعدد منافيها واختلاف أماكنها .

والمنفى مخيب للآمال، معقد ومربك وله أولويات غير أولويات الوطن، لهذا كانت قصيدة المنفى تشبه واقعها ، أيضاً، فلسطين والفدائي وحدهما كانا القاسم المشترك الأكبر بين قصائد المنفى، ولكن هذا القاسم ذاته تفتت إلى مفاهيم ورؤى مختلفة ومتعددة، فبينهما كانت هناك القصيدة ذات النبرة العالية واللغة الفخمة والصوت الواضح التي رافقت الثورة الفلسطينية في مواقعها المتعددة، كانت هناك القصيدة الهامسة، والمعبرة عن خيبة الأمل، والمرارة، والخديعة، وألم المنفى، والخوف، والشك، وكانت قصيدة المنفى ذات مستويات متعددة. الشاعر أحمد دحبور يكتب عن منفاه قصيدة بعنوان «لا أفرط بالجنون» :

لا لن يغير قلبها منك اقتراب أو بعاد، وانخفاض أو علو
لكن لي شرطاً عليك، ضع السؤال على السؤال

مَنِ العدو ؟!
يهتز غربال الفضاء لينثر الموت الدقيق
وبالنخالة يجبل الشجر العتيق مع الدماء ،
مَنِ العدو ؟!
بقيةَ الغيم المكلس دبّ فيها الرعدُ
فانفجرت قوارب ، والمنافي تستعدّ
من العدو ؟!

في المنفى، لم يعد يعرف الشاعر عدوَّه !! ولنلحظ هنا كيف يعرض الشاعر قضيته وقلقه بهذا الصوت الهامس والواطئ والخفيض، في دلالة على الحيرة والاضطراب وضبابية الرؤية.

والشاعر مريد البرغوثي يعبر عن مرارة المنفى وبُعد الوطن :

كبرنا على مفرق بين منفى ومنفى
هوت من يدينا الطفولة عند اختلاط الدروب
كما تسقط الريح شمسية في الهبوب المفاجئ
هذا انعطافي إلى ما سيبقى
وما يغلب الريح حبك
هذا الذي لا يرد ولا يتموسم، كيف
استطاعت به قامتي، يا سقوف المنافي
– وأنت الخفيضة – .

استطالت قامة الشاعر تحت سقف المنافي «الخفيضة»، فيما حبه لوطنه لا يُرد ولا يتموسم، وكان الثمن جفاف الطفولة «لاختلاط الدروب». الشاعر الفلسطيني في المنفى - ولبعده عن وطنه - ينشغل أو يتورط بما يفرضه عليه المنفى من إشكالات . ولهذا، فإن قصيدته تتحول إلى «قناعه» الذي يسمح له بأن يختفي وراءه أو يخفي أشياءه وراءه. هذا وليد الخازندار يكتب هذه القصيدة الهامسة الموغلة في الإبهام تحت عنوان «ستأتي مرتبكاً» :

هنيهة قبل الجرس
سيأتون بالموج في أكفهم
بعد برهة ، وبالضحكة العالية
سيملأون غرفة الجلوس بالزوايا
وسيكملون في المطبخ، حين يتبعونك الكلام
ولكن، كيف يمكن إن دخلوا غرفة النوم
أن تفسر كل شيء
ستأتي بالنبيذ مرتبكاً
زاعماً أنك نمت هنيهة قبل الجرس
وأنك، إذا صحوت، وجدت هذه الأجنحة الكثيرة
الأجنحة التي، حين دخلوا،
ظن كل واحد أنه وحده رآها .

مَنْ هؤلاء الذين يتحدث عنهم الشاعر؟! وما هي الأجنحة الكثيرة التي يظن كل واحد من هؤلاء أنه رآها وحده دون الآخرين ؟! ماذا يريد أن يقول الشاعر هنا ؟

هذا النوع من القصائد – المبهمة والمنغمسة في الأسئلة القلقة – نجده يتكاثر ويشيع على أيدي شعراء فلسطينيين كثر في المنفى، فيما اشتعلت قصائد غنائية ثورية أخرى ظهرت مُغنّاة تهدر بها الجماهير في كل تجمّع ومعتقل ومواجهة، أشاعتها إذاعات الثورة الفلسطينية، وكان حادي هذه الأغاني الشعراء : محمد حسيب القاضي ومريد البرغوثي وأحمد دحبور وأبو الصادق وغيرهم. ولعل هذا النوع من الشعر الموقّع هو الذي قعَّد وأرهص للشعر الذي راح يشيعه غناءً مارسيل خليفة وأحمد قعبور، مستندين إلى قصائد درويش والمناصرة والقاسم وزيّاد.

ولم يقتصر الأمر على التحول في موضوعة القصيدة، بل في بنيتها الكلية، لغة وتصويراً، إذ تحولت القصيدة من الشكل التقليدي العمودي إلى التفعيلة، ومن ثم إلى ما صار يعرف بقصيدة النثر، هذه التغيرات العميقة في هدم التفعيلة وغياب الوزن والاتجاه نحو الغموض كانت جزءاً من حركة تحول كبرى لحقت بالقصيدة العربية ككل، وقد قاد مثل هذا التحول أسماء شعرية عربية كبيرة ومشهورة، وأقل شهرة، ولم تَنْجُ القصيدة الفلسطينية في المنفى من هذه التحولات والتطورات، إذ كان على هذه القصيدة – كما قلنا – أن تحيا ضمن شروط الزمان والمكان.

التحولات التي لحقت بالقصيدة العربية والفلسطينية لم يكن سببها الانفتاح على الغربي وثقافته فقط، بل كان ذلك جزءاً من «أزمة» تعامل التراثي مع الواقع، والقديم مع الجديد، والنظام الإقطاعي مع إنجازات المدينة. هذه التحولات لم تمر دون جدل كبير وكثير ما زال دائراً حتى الآن.

ويمكن القول بهذا الصدد: إن القصيدة الفلسطينية في المنفى انخرطت تماماً في مجمل النتاج الشعري العربي ولم تتميز عنه بشيء، إذ استطاعت هذه القصيدة - بما تعبر عنه من قضية عادلة- أن تجر إليها القصيدة العربية لتسأل السؤال ذاته وتثير القضية ذاتها، أي أن الشعر العربي الحديث انشغل بقضية فلسطين تماماً كانشغال القصيدة الفلسطينية، وخير من يعبر عن ذلك الشاعر العراقي سعدي يوسف والشعراء العرب الذين واكبوا أيام الثورة في لبنان.

أما القصيدة الفلسطينية التي نمت وتطورت في الأراضي الفلسطينية المحتلة بعد العام (1967)، والتي اصطلح على تسميتها بالضفة الغربية وقطاع غزة، فقد عاشت بما يشبه «الجيتو» الثقافي، نظراً للممارسات الاحتلالية التي منعت دخول الكتب والمجلات إليها، من جهة، ولاحقت المطبوعات وإنتاج الكتب والصحف والمجلات بمقص الرقيب، مرة، وبالإغلاق أو بالمصادرة مرات أخرى. وهكذا، فقد اضطرت القصيدة في هذه المناطق أن تولَد مقطوعة عن تاريخها وعن

بيئتها إلى حد كبير ، بمعنى أن هذه القصيدة كان عليها أن تبدأ كل شيء من جديد ، وأن ترى في ذاتها وسيلة مقاومة للاحتلال ليس إلاّ ، باعتباره التحدي اليومي الذي لا بد من مواجهته ، ولأن الأمر كذلك ، بمعنى أنها موجّهة للجماهير لتثويرها وتحريضها ، فقد كانت هذه القصيدة متقشفة وصريحة وقريبة . كانت مثل هذه القصائد ضرورة تاريخية ، فالاشتباك اليومي يفرض قوانينه وشروطه وجمالياته ، ويتميز الشعراء الذين بدأوا بنشر نتاجهم الشعري في الضفة والقطاع بعد منتصف السبعينيات بأنهم ، جميعاً ، في مقتبل العمر لم يشاهدوا سوى الاحتلال وقسوته وظلمه وبطشه ، وأن وعيهم تفتح على وجود بنية قوية وملموسة للمقاومة الفلسطينية ضد الاحتلال داخل الأرض المحتلة وخارجها ، وأن صورة الفدائي هي المثال ، وأن شعارات التحرر والاستقلال هي الثقافة السائدة ، ولهذا ، فقد انخرط هؤلاء قولاً وعملاً في جسم المقاومة - بشكل يزيد أو يقل - ، فكتبوا القصيدة التي تشبه البيان السياسي ، تلك القصيدة التي يمكن لها أن تتحول إلى أغنية تهدر الجماهير بها في الشوارع . إن خير من يمثل هذا الاتجاه داخل الأرض المحتلة كل من الشعراء : عبد الناصر صالح وسميح فرج والمتوكل طه وتوفيق الحاج ووسيم الكردي وماجد الدجاني ومحمد شريم ووداد البرغوثي ويوسف المحمود وسميرة الشرباتي وسميح محسن ومازن دويكات ، والذين قام على رعايتهم الشاعر علي الخليلي من خلال عمله رئيس تحرير مجلة

«الفجر الأدبي» ، فيما كانت أصوات شعرية أخرى تتأمل أكثر من غيرها وتهمس ، ولم تكرّس نفسها للمواجهة المباشرة ، أو الخطاب المباشر على رغم احتفاظها بوطنيتها ، وخير من يمثل هذا الاتجاه الشعراء : حسين البرغوثي ومحمد حلمي الريشة وباسم النبريص وعيسى بشارة وباسم الهيجاوي وريم حرب وعثمان حسين ، وكذلك أحمد حسين ومحمد حمزة غنايم ونداء خوري وسليمان دغش ومعين شلبية (الأسماء الخمسة الأخيرة من الأرض المحتلة العام 1948) ، يوازيهم في المنفى الشعراء : إبراهيم نصر الله ويوسف عبد العزيز ويوسف أبو لوز وزهير أبو شايب وزكريا محمد وغسان زقطان وربحي محمود وشهاب محمد وطاهر رياض وعلي فودة وخالد درويش ومحمد الظاهر وراشد عيسى ومحمد لافي ووليد الخازندار وعبد الله عيسى وعلي العامري وعمر شبانة وفيصل قرقطي وطلعت سقيرق ومنذر عامر وسليم النفار . . . وغيرهم . وتجدر الإشارة إلى الشاعر أمجد ناصر الذي انغمس في العمل الوطني والثقافي الفلسطيني ، الأمر الذي جعله فلسطينياً بامتياز على رغم انتمائه الموضوعي للأردن الشقيق .

الشاعر عبد الناصر صالح يكتب عن الحاخام العنصري مئير كهانا الذي هدد بطرد الفلسطينيين من الضفة والقطاع في منتصف الثمانينيات :

أنادي عليك

تأخرت يا ركب أمي المعفر بالحزن

لا أستطيع الوقوف على الوقت
إن الزمان اللعين يريد اغتيالي
وإن كهانا يهددني بالرحيل
ولكنني :
مهما توالت عليّ الرزايا
وكلفني وطني من ضحايا
سأبقى أقاوم كل الظواهر .

لنلحظ البساطة والتقشف وطرح القضية بهذا الشكل الأحادي، بحيث يفقد الشعر قوة إيحائه ليقترب من الإقناع والتعرض مباشرة للمضمون المؤرق. وهذا الشاعر وسيم الكردي يكتب عن «سلافة»؛ التلميذة الفلسطينية التي تريد أن تحيا على رغم كل الظروف القاسية :

هنا أول البر
حيث تدق سلافة متراسها
وحيث تهيئ عند انبلاج الصباح
كراريسها
وتوقظ في زحمة النار
أفراسها
وتبدو كإنجيل عرس

يهيئ عند اصطفاف الصغار
قناديل عشق
تلملم وجه الضياء
وتنشر في الأرض أعراسها .

هنا، يرتفع النص إلى قوة الإيحاء والتعددية والمستويات المختلفة، إذ إن «سلافة» لم تعد مجرد تلميذة، ولم تعد مجرد أنثى، بل هي فلسطين كلها .

القصيدة الفلسطينية في الأرض المحتلة ، التي أُخذ عليها انشغالها باليومي والسياسي، كانت مضطرة إلى ذلك تماماً، فالشعر ابن زمانه ومكانه، وما يصوغ سقوفه وشروطه هو الواقع تماماً، لقد كانت هذه القصيدة قصيدة الضرورة واجبة الوجود .

هذا المفهوم تم التعبير عنه بطرق مختلفة ومتعددة، ولهذا، فإن الحديث عن قصيدة فلسطينية واحدة ذات مزايا وخصائص واحدة يبدو صعباً، وصعباً جداً، إذ لا يمكن هنا الحديث عن شعر «قومي» أو خاص بالفلسطينيين فقط، إذ إن هذا الشعر كان مرتبطاً بحركة الشعر العربي ككل، وإذا كانت هناك خصوصية للقصيدة الفلسطينية فهي تتعلق، فقط، بخصوصية موضوعها ليس إلاّ .

هذه الموضوعة بالذات - موضوعة الحنين إلى الوطن المحتل والتغني

بلحظة الحرية والاستقلال- فرضت على الجميع، بلا استثناء، الكلام عن «الآخر» العدو أو النقيض، باعتبار أن غياب الوطن أو استلابه يعني بالضرورة الكلام عن العدو.

«الآخر» الذي عرفه الفلسطينيون بأنه المحتل الإسرائيلي - بعيداً عن التوصيفات العنصرية أو الشوفينية أو الدينية، وأنه موظف لدى الإمبريالية العالمية التي لا تمانع في استعباد الشعوب ومصادرة ثرواتها، هذا «الآخر» عرّف الفلسطينيين، أيضاً، بأنهم شعب بلا جذور ولا تاريخ، وأنهم مجرد جماعة غير معرّفة ولا علاقة لها بالأرض؛ أرض فلسطين.

هذا الجدل، وهذا الجهد في تعريف الذات وتعريف «الآخر»، انعكسا في القصيدة الفلسطينية في كافة أماكن وجودها وتطورها، بحيث ظهر «الآخر» فيها إما عدواً مطلقاً، أو يمكن الحوار معه على أساس إنساني، أو أنه مجرد مغرّر به من قبل قوى استعمارية وأنه يقوم بدور متقدم في خدمة تلك القوى، وهناك من الشعراء الفلسطينيين من أراد أن يرى في المحتل إنساناً مريضاً ومشوهاً تقع علينا مهمة شفائه من مرضه!

«الآخر» العدو موجود في القصيدة الفلسطينية بقوة وكثرة، لأنه يحتل كل شيء، ويرغب في مصادرة كل شيء، ولا يعترف للفلسطيني بشيء. ويقف الشاعر محمود درويش في الطليعة من مسألة الاشتباك مع «الآخر» النقيض، فهذا الشاعر الكبير بالذات يتأرجح بين قطبين شديدي التنافر في تحديد علاقته بهذا «الآخر»، ففي الوقت الذي يقول

فيه درويش للمحتل :

أيها العابرون في كلام عابر
خذوا حصتكم من دمنا وانصرفوا

يقول في قصيدة أخرى ووقت آخر :

لا أحبك، لا أكرهك
قال معتقل للمحقق : قلبي مليء
بما ليس يعنيك، قلبي يفيض برائحة المريمية
قلبي بريء، مضيء، مليء .

وتميزت العلاقة - كما ظهرت في الشعر الفلسطيني - مع «الآخر» العدو حسب فترات القوة والضعف التي أصابت المجتمع الفلسطيني، بمعنى أن الهزيمة المُرّة التي ألحقها الإسرائيلي بالمجتمع والنظام العربيين ، وكذلك الفرد والثقافة العربيان، جعلت من النظرة إلى «الآخر» العدو نظرة مركبة ومتناقضة وذات مستويات، بحيث تفتت هذا «الآخر» إلى مفاهيم متعددة ، منها جلد الذات والإحساس بالغربة والمرارة وخيبة الأمل.

الإحساس بالغربة والمرارة ، هذا، صار ملمحاً أساساً في القصيدة الفلسطينية بعد الزلازل السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي لحقت بالنظام العالمي ، بشكل عام، والأوضاع الإقليمية والفلسطينية ، بشكل

خاص، إذ إن انهيار الاتحاد السوفييتي، وحرب الخليج الأولى، وتوقيع اتفاق أوسلو في أوائل التسعينيات، هذه الزلازل أصابت البنى الفكرية والأيدولوجيات في الصميم، وكسرت «المتحكّم» في خطابنا الوطني والثقافي، كما دفعت الأنظمة العربية إلى الخوف والانغلاق والتشدد بسبب من تهديد الإمبريالية الأمريكية وضغوطها، وهو ما دفع هذه الأنظمة إلى قبول الصلح مع «إسرائيل» كبادرة حسن نية وإطاعة وطاعة، وهو الثمن الذي دفعه الفلسطينيون في قبول تسوية سلمية ظالمة وغامضة، إذ أُجبرت منظمة التحرير الفلسطينية على صلح مع إسرائيل من دون إنهاء للاحتلال، ومن دون سيادة، ومن دون عاصمة، ومن دون حدود، ومن دون سيطرة على الثروات الطبيعية، ومن دون عودة اللاجئين. هذا التحول الفريد والعجيب ، أيضاً، انعكس تماماً في القصيدة الفلسطينية التي صارت أكثر فأكثر رمادية وقاتمة، وتعبّر عن جدل وحساب عسيرين للنفس ومراجعة قاسية لما مضى.

وإذا كانت القصيدة الفلسطينية قد احتفلت قبل ذلك بصورة الفدائي والثورة والوطن، فإن القصيدة هذه وبعد التسعينيات تحولت إلى داخلها، تسأل ذاتها وتحاسب نفسها، لا فرق في ذلك، أكانت هذه القصيدة قصيدة منفى أم قصيدة محلية على أرضها المحتلة أم في قلب «إسرائيل» ذاتها.

خيبة أمل حقيقية أصابت القصيدة الفلسطينية يعبّر عنها ماجد أبو غوش

بهذه القصيدة :

باسم الأب بوش
باسم بوش الابن
نعلن توبتنا
ونفتح الأبواب
للغزاة - عفواً الجنود-
وللأحذية الثقيلة . .

فتح الأبواب للغزاة - كأسلوب من أساليب التعذيب الذاتي أو المفارقة والسخرية - كان قد فعله من قبل محمود درويش حين «دعا» الغزاة إلى بيته وشرب الشاي وأكل الفستق الطازج . وذلك حين قال في قصيدة «أحد عشر كوكباً» في العام (1992) :

فادخلوا، أيها الفاتحون، منازلنا واشربوا خمرنا
من موشحنا السهل، فالليل نحن إذا انتصف الليل، لا
فجر يحمله فارس قادم من نواحي الأذان الأخير
شاينا أخضر ساخن فاشربوه، وفستقنا طازج فكلوه
والأسرّة خضراء من خشب الأرز، فاستسلموا للنعاس .

وهكذا دخلت القصيدة الفلسطينية في عقد التسعينيات في هذه النغمة الواطئة والخفيضة، وحتى بعد اندلاع انتفاضة الأقصى التي بدأت في

أيلول العام (2000)، إذ إن هذه الانتفاضة وعلى عكس المتوقع، وعلى عكس ما حدث في الانتفاضـــة الكبـرى العام (1987) - لم تدفع دماء جديدة وعنفواناً في أوصال القصيدة التي ظلت تراوح مكانها في أسئلة قلقة وإحساس عارم بالخسارة والمرارة. وفي عقد التسعينيات بالذات وبعد اندلاع الانتفاضة، أيضاً، لاحظنا ميلاد موجة جديدة عبّر عنها شعراء جدد، غادروا الموضوعات الكبرى تماماً، وتخلوا عن ثوابت القصيدة، وانطلقوا إلى الهامشي والذاتي في ظاهرة تستحق التوقف عندها ودراستها جيداً، فيما حافظ بعضهم على خيط رفيع مع القصيدة الثمانينية بتجاوزات واضحة، وخير مَنْ يُمثّل هذه الموجة الجديدة: مراد السوداني وطارق الكرمي وعبد الرحيم الشيخ وسمية السوسي وفاتنة العزة ومحمد الديراوي وخالد عبد الله وخالد جمعة ودنيا الأمل إسماعيل وصباح القلازين، وهؤلاء من الضفة الغربية وقطاع غزة. وكذلك جهاد هديب وسامر أبو هواش ونضال برقان من المنفى. وغادة الشافعي وسامر خير وأيمن إغبارية وصالح حبيب من أراضي (1948).

إن الملامح الأساسية للمنجز الشعري الفلسطيني في الفترة ما بين (1967) و(2004) يمكن إيجازها بالآتي:

* إن هذا المنجز جعل من فلسطين - القضية والشعب والمقاومة - رمزاً إنسانيــاً يقاس بها وعليها العدل والحق والخير، وبهذا ارتفعت هذه

القضية من مجرد نضال شعب صغير لاستعادة أرضه إلى قضية إنسانية كبرى لها امتداداتها العالمية.

* استطاع هذا المنجز الشعري أن يكون الكاشف والمقوّم للأخطاء والانحناءات والالتواءات والانعطافات والانكسارات التي لحقت بالثورة الفلسطينية ومسيرة حركة التحرر الوطني الفلسطيني، من دون أن يتورط في المجاملة أو الكذب أو الزيف. كان هذا المنجز صادقاً طيلة الوقت يعبّر عن روح الشعب من دون أن يلتحق بمقولة السياسي، ومن دون أن يتحول إلى بوق ينطق بالدعاية أو العرض المسطّح للأشياء.

* على الرغم من أن هذا الشعر لم يقدم الفلسطيني على أنه الضحية – من منطق عدم الرغبة بالاعتراف بالهزيمة، فإن هذا الشعر قدّم الفلسطيني باعتباره وريثاً لحضارات العالم القديم، أميناً عليها، متطلعاً طيلة الوقت للحياة والتعايش والمشاركة الإنسانية. وبهذا ارتفع الفلسطيني إلى رمز آخر من رموز هذا الشعر، هذه الصورة الشعرية للفلسطينيين ساهمت في فترة من الفترات في إبداع المعجزات، ولكنها فشلت في إرضاء الطموح أو إشباعه عندما قامت السلطة الوطنية الفلسطينية على جزء من أرضها في فلسطين. لقد ساهم المنجز الشعري الفلسطيني في خلق وهم ما حول شخصية الفلسطينيين، فالبطولة والتضحية في الشعر

والمقاومة لا تقابلان الالتزام والانتماء والمواطنة في المجتمع الحديث .

* إن هذا المنجز الشعري استطاع بحق أن يقدم «إجابات» و«مقولات» حقيقية ومقنعة لجمهوره في مختلف مواقع وجوده ليرد بها على التحديات والظروف التي وجد فيها ، وقد شكل هذا المنجز جداراً حقيقياً يستند إليه الجمهور في الأزمات واللحظات الحرجة . وقد لعب هذا المنجز دور المخزون الروحي الكبير القادر على استباق المواقف السياسية ، وفي بعض الأحيان تجاوزها بكثير .

* استطاع هذا المنجز أن يقدم لجمهوره ، أيضاً ، «المثال» و«المطلق» على عكس «الممكن» السياسي ، بهذا صار الشعر يقابل السياسة ، ليصبح أكثر قرباً وأصدق تعبيراً عن التوجهات العميقة والتطلعات الحقيقية لجمهوره .

* ويجب القول ، أيضاً : إن هذا المنجز الشعري كان انعكاساً حقيقياً لحركة المجتمع والتاريخ ، بمعنى أن قوته أو ضعفه ، تقدمه أو تراجعه ، كانت مرتبطة إلى حد كبير بحركة التاريخ من حوله ، ولهذا فإن تراجع هذا المنجز إلى مواقع خلفية ، واتخاذه النبرة الهامسة والمترددة ، كان ترداداً لحالة الضعف والهزيمة التي لحقت بالمجتمع ككل .

* يجب القول، أيضاً، إن إفرازات العولمة - بما فيها من ثورة اتصالات ومعلومات وتغير الذائقة وتراجع القراءة - قد أصابت هذا المنجز الشعري بما يشبه العزلة أو الميل إليها، بحيث تحولت القصيدة الفلسطينية - وهو ما أصاب القصيدة في العالم بشكل عام - إلى أن تكون «عزلة الشاعر».

* المنجز الشعري الفلسطيني وخلال السنوات الخمس والثلاثين الماضية، الذي بدأ متفائلاً وانتهى إلى نبرة التساؤل أو التشاؤم، كان بحق خير دليل سوسيولوجي وتاريخي على التحولات العميقة التي أصابت البنى الفكرية والثقافية والسياسية في فلسطين والعالم العربي، من الدولة القومية إلى دولة الأقليات الباحثة عن هويتها. إن هذا التغير العميق كان بفعل الهجمة الاستعمارية الجديدة على عالمنا العربي والإسلامي، إذ إن ترتيبات الحربين العالميتين الأولى والثانية لم تعد مناسبة لعالم ذي قطب واحد أراد أن يعيد ترتيب المنطقة من جديد، فأثار النعرات الطائفية والإثنية وروّج لمفاهيم غربية وغريبة على مجتمعات زراعية لها ثقافة مختلفة تماماً. إن ذلك كله دفع الأنظمة إلى شمولية أكثر وتشدد أكثر، الأمر الذي أفقد «المثقف» قدرته على الفعل والقيادة إلى حد كبير، وهو ظرف أدى إلى زيادة عزلته واختفائه، وكان الشعر أحدٌ مظاهر هذه العزلة، إن القصيدة اليوم هي أكثر ما تكون تعبيراً عن عزلة وليس عن مشاركة.

* لم يسقط المنجز الشعري الفلسطيني ، على رغم شراسة الصراع ، في هوّة العنصرية القومية أو الدينية ، بل قدم لجمهوره ولأعدائه على السواء نموذجاً مشرّفاً لطبيعة الصراع وأخلاقياته .

* ثمة ظاهرة في الشعر الفلسطيني تخلّقت من رحم المقاومة، عُرفتْ باسم «أدب السجون والمعتقلات»، وهي ظاهرة تستحق المعاودة والتبؤر والبحث . عمل على تأصيلها عدد من الشعراء الفلسطينيين الذين تم زجّهم في أتون «باستيلات» الاحتلال الإسرائيلي وسجونه الخانقة، وأكثر ما يدلل على هذه الظاهرة إبداعات الشعراء : عبد الناصر صالح والمتوكل طه ووسيم الكردي، فيما عزّز هذه الظاهرة نثراً المبدعون : عزت الغزاوي وسامي الكيلاني ومحمود الغرباوي وسمير شحادة وفايز أبو شمالة وعطا القيمري وحسن عبد الله ووليد الهودلي وعبد الستار قاسم وعيسى قراقع . . . وغيرهم .

* أخيراً، ارتبط هذا المنجز الشعري بواقعه وتحدياته ، من جهة، وظل محافظاً على ارتباطه العضوي الوثيق بتاريخه وتراثه العربيين من جهة أخرى، بحيث صار هذا المنجز جزءاً من تاريخ طويل للشعر العربي يمتد إلى أكثر من ألفي عام .

واقع الثقافة
في فلسطين

I

الثقافة والمقاومة

الثقافة بدعامَتَيها المادية والروحية هي في محصلة الأمر تلك المعايير التي نجابه بها الجديد والطارئ والغريب، بمعنى أن الثقافة تعطينا الميزان الذي نقيس به الصواب والخطأ، الأخلاقي وغير الأخلاقي، النافع والضار. هذا الميزان المنصوب دائماً أمام أعيننا لا يصوغه نتاج النخبة، ولا معايير أخرى مستوردة، ولا معايير مفروضة، ولا ما يستحسنه البشر. هذا الميزان هو ما يعكس روح الجماعة أو خيارها الجمعي أو ما راكمه نشاط تلك الجماعة في مكانها وزمانها، وعلاقاتها، بعضها ببعض، أو بغيرها من الجماعات، مضافاً إلى ذلك ما يمنحه الدين أو يفرضه أو يقبله أو يرفضه . الدين نزعة حقيقية لكل جماعة، الغريزة الدينية أو الدافعية الدينية هي أحد الدوافع التي تم السكوت عنها في أبحاث السسيولوجيين والمفكرين في خضم ثلاثة قرون من الفكر الغربي الذي استبعد كل ما لا يدخل المختبر أو يقيسه البارومتر.

الثقافة ، إذاً ، بدعامتيها الروحية والمادية ، هي الأنماط الذهنية والوجدانية والسلوكية التي تم تثبيتها خلال الزمن ، فصارت إلى حدٍّ ما مطلقة ، نهائية ، مقدّسة ، صارت جزءاً من التكوين الروحي والنفسي والتعريف الكلي للوجود وهدفه وأسلوب ممارسة ذلك الوجود وشكله . وكلما كانت تلك الأنماط الثقافية داخليةً كانت عصيّة على التغيير أو التغير أو المناقشة أو إعادة المناقشة ، ولهذا يمكن للمرء أن يغير ملابسه أو أدوات منزله ، ولكن من الصعب عليه أن يغير معتَقداً يؤمن به .

نقول هذا الكلام لنخلص إلى القول : إن الثقافة بمفهومها الواسع ، الحضاري المدني ، التاريخي العريض ، هي الهوية الحقيقية للمرء وللجماعة ، تواجَه بها المعضلات ، وتُتقى بها الأزمات . وكلما كانت هذه الثقافة واسعة ، مرنة ، ذات منظور عميق وممتد ، وتملك إجابات وردوداً كافية ومقنعة وذات تأثير ، استطاعت الصمود والمقاومة والصعود .

قوة الثقافة ، أي ثقافة ، تكمن في قدرتها على المجابهة ، من جهة ، وقدرتها على الحوار وتقديم الإجابات والردود ، وسرعة استجابتها للجديد والطارئ والغريب . الثقافة التي ماتت كانت متحجرة ، مغلقة ، لم تستطع أن تفهم ما يدور خارجها أو تدركه . ولن ندخل الآن في جدل عقيم حول اندغام الحضارات وتأثيرها ، بعضها على البعض الآخر ، فإننا قد نميل إلى حديّة شبنغلر الذي أنكر هذا تماماً ، وهناك

حضارة تسود، وهناك حضارة تموت، والحضارات المتجاورة تتصارع فيما بينها أكثر مما تتبادل المنافع، وللدقة أكثر: هناك حضارة قوية ذات إشعاع، وهناك حضارة أقل قوة تستقبل الإشعاع. القوي يفرض أو يحاول فرض أسلوب قوته ولغة قوته وفن قوته. كان هيغل تعبيراً عن قوة نابليون، وكان داروين تعبيراً عن استعمارية حكومة جلالتها، تماماً كما كان «رامبو» السينمائي سلفستر ستالوني تعبيراً عن فظاظة الإمبريالية وشراستها، كما كان ابن عربي تعبيراً عن وصول «التأويلية» في الإسلام إلى الدرجة الأخيرة في سلم الحفر تحت معنى الألوهية، ولهذا، فإن قوة الثقافة تدفعها إلى فرض رموزها وتعميقها بالإقناع والحوار، كما فعلت الحضارة العربية الإسلامية، أو بالجبر والإكراه، كما فعلت الحضارات الأخرى.

هذا الكلام النظري لا يعفينا من السؤال: ما هي مقومات ثقافتنا؟! هل يمكن الكلام عن ثقافة خاصة بنا؟! هل هناك وحدة مصطلح ووحدة مفهوم لهذه الثقافة؟! هل يمكن الحديث عن ثقافة متعددة إلى ثقافة واحدة؟! وأخيراً، هل هناك ثقافة عربية إسلامية يتفق عليها الجميع؟! وفي فلسطين، ما هي الدوافع الثقافية التي تدفعنا إلى البقاء والصمود والمقاومة؟! هذه الأسئلة لا نندفع إليها بفعل هزيمة النظام العربي فقط، فقد طُرحت هذه الأسئلة، أيضاً، في أوج قوة الحضارة العربية الإسلامية، ذلك أن الحضارات القوية تطرح أسئلتها دائماً، ودائماً هي مستثارة، ودائماً هي محرضة، قادرة على مناقشة ذاتها. هذا هو قدر

الحضارات العظيمة، وإذا توقفت أي ثقافة عن طرح الأسئلة فإنها تموت عملياً.

الأسئلة الآنفة الذكر نطرحها الآن، لأن هناك شرذمة حقيقية في تعريف الوجهة الحضارية للمجتمعات العربية والشعوب الإسلامية، هناك إسلام متعدد، وهناك عروبة متعددة، وهناك تجارب علمانية مختلفة كل الاختلاف، وهناك تجارب إسلامية منغلقة كل الانغلاق، وهناك تغريب وغربة، وهناك تطرّف وطرافة، إن شئت، والأهم من كل هذا: هناك تراكمات طويلة وعميقة من الرؤى والاجتهادات المختلفة والمتناقضة للإسلام الأول، بحيث أثمرت اليوم أشكالاً وأحزاباً وحركات قد تبدو غير مفهومة، أو تبدو تثير الاستغراب. نقول ذلك بعد أن أدى فهم معين للإسلام إلى أحضان الخيانة العلنية، وأدى فهم آخر للإسلام إلى الاشتباك مع الغرب اشتباكاً غير متكافئ وهزيمة ساحقة حتى الآن، على الأقل.

ماذا عن الفلسطينيين إذاً؟! هل هناك أزمة على هذا المستوى؟! وما هي المفاعيل الثقافية التي تلعب الدور الأكبر في إذكاء نار المقاومة، والتصدي لهذا العدو الذي يشكل التقطير الأخير للفكر الغربي، مضافاً إليه العقد والأوهام والأمراض التاريخية التي يجرها ويحملها شعب يعتقد أنه أفضل شعوب الأرض؟!

في فلسطين، تجري حقاً مواجهة بين عالمين مختلفين، من جهة، هناك

العرب والمسلمون الذين يمثلون ثقافة عريضة وغنية وقديمة تعودت التسامح والحوار والوضوح والتعدد، في منطقة تعودت الموزاييك العقدي والعرقي منذ فجر التاريخ، وهناك المحتل الإسرائيلي اليهودي الذي يمثل ثقافة قديمة صاغتها الهواجس والأحلام، تعودت تقديس الجماعة وروح الأسلاف، ورأت العالم مقسوماً بلا تساو أو تسامح، لا تعترف بالصوت الآخر إلاّ من حيث إمكانية استغلاله أو استخدامه.
ثقافتان مختلفتان كل الاختلاف، حتى فكرة الإله الواحد تم الخلاف بشأنها إلى أبعد الحدود، فإذا كان الله في ثقافة هذه المنطقة هو الإله الواحد المطلق القادر الرحيم، الذي لا يفرق بين البشر، ويغفر لجميع البشر، نجد الإله لدى المحتل اليهودي ليس إلهاً للجميع ولا يغفر للجميع، وينحاز إلى إنسان معين ومكان معين.
ولأسباب تاريخية وحضارية نتجاوزها الآن (باعتبارها موضوعاً كبيراً وبحاجة لتوضيح وشرح)، فقد تم تبني المفهوم اليهودي للمسيحية في الغرب، بحيث أصبحت الليبرالية الغربية في أفضل حالاتها غير بعيدة عن ذلك المركب الغريب والخلط العجيب بين المسيحية الغربية واليهودية الشرقية، بحيث تحول اليهودي من ملعون ومطارد إلى رجل مبارك يضيف إلى العالم ما لا يستطيع أحد أن يضيفه، ومن عجب أن يخرج اليهودي من «الغيتو» في المدينة ليحكم المدينة الغربية من خلال دوائر صنع أهم القرارات فيها، إلى الدرجة التي ذكرت فيها بعض كتب التاريخ أن بابوات مشهورين جاؤوا من «الغيتو» هذا.

وعلى هذا، فإن تبني الغرب إسرائيل لم يأت، فقط، من منطلق المصالح والدور الوظيفي الذي ستلعبه إسرائيل، وهذا منطق صحيح، ولكن بسبب العقيدة، أيضاً، وهذا ما يتم إخفاؤه لأسباب مختلفة لا نخوض فيها الآن.

ثقافة المحتلّ الإسرائيلي ومن يدعمه ثقافة أرضية، على الرغم من مشرقيتها، ثقافة تُعلي من شأن كل ما يمكن وزنه وقياسه، وهي ثقافة حسّية لا تتحدث عن العالم الآخر، وهي ثقافة كابوسية يُترك فيها المرء، وحده، أمام لا وعيه تماماً، وهي ثقافة ماضوية الأسلاف، هم الأبطال والأحفاد، هم العصاة الذين سيحلّ عليهم غضب الربّ.

الفلسطينيون الذين طاردهم الذبح والقتل منذ ما يزيد على قرن مجبرون على المعرفة كأحد أشكال المقاومة، ومجبرون على الالتجاء إلى ما تمنحهم إياه ثقافتهم من أنماط القوة فيها، كالشهادة والتضحية والالتزام والانتماء، ومجبرون على عدم طرح الأسئلة التي تفرق، والالتفاف حول الإجابات التي تجمع، وقد يكون من دواعي الفخر أن يكون الإسلام السّني في فلسطين يقدم أروع النماذج للعالم العربي والإسلامي كلّه في مقاومة الاحتلال. والفلسطينيون مجبرون على فهم ثقافتهم من مدخلها القوي والناصع، فالنصر لا تصنعه المقولات الرخوة والغامضة، بقدر ما تصنعه المقولات التي تقدم الجزاء.

الفلسطينيون الذين يمارسون حياتهم على هذه الأرض وفي المنافي،

الذين يمثلون ثقافة العرب والمسلمين في هذه الألفية الثالثة، مجبرون على مقاومة المحتلّ وثقافته بالالتجاء إلى ثقافتهم التي تمنحهم قوة الفعل وأخذ المبادرة، من جهة، وتمنحهم، أيضاً، الشعور بالرضا والاكتفاء بسبب ذلك الفعل. الثقافة القوية هي التي تعطي هذا الإحساس للمنتمين إليها.

بعد (11 أيلول 2001)، من الضروري الإشارة إلى عدم الانجرار وراء ما يطرح من أقوال باتت غير ذات ضرورة، من أمثال أن الإسلام وسطي، أو أن الإسلام يحارب الإرهاب، وأنه يتقبل الآخر ولا يرفضه، على صحة كل ذلك، ولكن لماذا لا يقال، أيضاً، مثلاً: إن الإسلام هو دين العدل وهو دين القوة، وإن العدل في الإسلام درجة يُقفز منها إلى الرحمة، وإن الرحمة أوسع من العدل؟ لماذا لا يقال: إن الإسلام هُزم أكثر من ثلاثة قرون متوالية، وإن الشعوب العربية الإسلامية انتُهكت ونُهبت وشُرّدت وسُلبت مدة قرون ثلاثة؟ لماذا لا يُقال: إن أول استعمار للبلاد العربية والإسلامية بدأ أوائل القرن التاسع عشر ولم ينته حتى الآن؟ لماذا لا يُقال: إن الإسلام واضح كل الوضوح في القضايا الخلافية؟ ولماذا لا يُقال: إن الغرب يسعى دائماً إلى تجريد العرب والمسلمين من سلاحهم في كل مناطق التوتر؟ ولماذا لا يُقال: إن الغرب يسعى دائماً إلى حشر العرب والمسلمين لفهم واحد ووحيد للثقافة العربية والإسلامية؟ ولماذا لا يقال: إن التجارب الأخرى التي يطلق

عليها التجارب العلمانية والليبرالية لم تؤد إلى توفير الكرامة والحرية والاستقلال والتنمية للشعوب العربية والإسلامية ؟ ولماذا لا يقال : إن الشعوب العربية الإسلامية مهانة ومذَلّة ومستلَبة على كل الأصعدة ؟ ولماذا لا يُقال : إن الغرب يعيش ويحيا على أنقاض عالمنا العربي والإسلامي وخيراته ، وإن الغرب هو مصدر الحركات الإرهابية والعنصرية ، وإن الإسلام أبعد ما يكون عن ذلك ؟

لماذا لا يُقال : إن فهمنا ثقافتنا وعروبتنا فهم منقوص وخاطئ وغير فاعل حتى نبقى مهزومين حتى على مستوى اللغة ؟ إن تصريح وزير الخارجية القطري الأخير الذي أطلقه في أمريكا ، ومفاده أنه يجب أن نتوسل أمريكا لتحلّ قضايانا هو التعبير الأكثر انحطاطاً عن هذه الظاهرة .

الفلسطينيون هنا على هذه الأرض يقدمون الثقافة العربية والإسلامية بأبهى صورها ، كيف ذلك؟! إنهم ببساطة يعتقدون أن عناصر ثقافتهم الداخلية والخارجية من القوة ، بحيث تتم التضحية بالنفس من أجل كرامة الإنسان وكرامة الأرض ، وبحيث يتم ذلك بأقصى درجات الرضا والاكتفاء .

الأمر الأخير ، الذي أريد أن أشير إليه ، هو ذلك النتاج النخبوي الثقافي من قصة ورواية وشعر ورسم وغناء ، فهو تفريغ لجذور أعمق وأعرض ، وهذا النتاج النخبوي ليس كل الصورة وإنما جزء منها ، فقصيدة الشعر لا يتم الاعتراف بها إلا بمقدار اقترابها من ذلك الجذر العميق وفهمها

إياه، ومن هنا، فإن العقلية الجمعية أسقطت من ذاكرتها ملايين قصائد الشعر التي قيلت، ولم تبق إلا قصائد قليلة عبّرت عن الجذر العميق واعترفت به، وكانت ابنة شرعية له وبرعماً صغيراً استمدت النسغ منه.

النتاج النخبوي الثقافي، الرسمي والمعارض، المقبول والمسكوت عنه، هو تفاصيل لعنوان كبير، والجماعة لا تعترف بمن يخالفها، وتُسقط من حسابها من يسقطها من حسابه، ولهذا، فإن مقاومة المحتل وثقافته لا تتم من خلال نتاج ثقافي غامض، مطاط، يستبدل الأدنى بالذي هو خير، أو نتاج يتنكر لما مضى بما هو حاضر، أو ذلك النتاج الذي ينبهر أو يدعي أو يتضامن أو يخضع أو يدعو إلى ما لا تدعو إليه الجماعة.

ثقافة أي جماعة هي آلة ماصّة تعيد كل نتاج إلى نمط معروف تراكم بفعل الوحي أو بفعل الزمن، فإذا كان هذا النتاج لا يقبل الأنماط المعروفة يتم رفضه إلى أبد الآبدين، وعندما ينسفح الدم في الشوارع بكل هذه الوحشية وهذه العبثية، فإن أعلى أنماط الثقافة وأصدقها وأنصعها هو ذلك الشاب المضطرم بالأنفة والجسارة والألق، الذي يرمي قلبه في كأس النار والنحاس ليستبدل به حوصلة طير أخضر.

II

الثقافة والطغيان

لنبدأ كلامنا، مرّة أخرى، بأبلغ القول وأقدسه وأحكمه، نبدأه بأمر الله جل وعلا لنبيه موسى في قوله: «اذهب إلى فرعون إنه طغى».

فالطغيان يقتضي بالضرورة تدخّل الله بأيدي أوليائه المخلصين، وهي بشرى لكل مظلوم في الدنيا، إن الظلم سينتهي تحقيقاً لقوله عزّ وعلا: «وإن ربك لبالمرصاد»، ونحن في فلسطين التي لا يعمّر فيها ظالم نرى أن أمصاراً كثيرة شهدت أكبر أسطورة للظلم والطغيان وحب الدنيا، تمثّلت، مثلاً، في فرعون وحاشيته، حيث قال عنه ربّ العزّة: «وإنه لعال في الأرض، وإنه لمن المسرفين».

إن تاريخ الظلم في منطقتنا يمثّل تجارب شعوبها في التعرّف على ذواتها وافتعال رؤيتها وتعميق اتحادها برسالتها وقيمها.

وإن حكايات الظلم والطغيان المتعاقبة علّمت شعوب هذه المنطقة أن مكامن قوتها وأسرار منعتها لا تأتي من الخارج ولا تستورد من الآخر، وأن إنهاء الظلم وتجاوزه لا يتمان إلا بمثل ذلك الأمر الأزلي: «اذهب إلى فرعون إنه طغى». بقدر موضوعية التاريخ بقدر ألوهيته، أيضاً.

ولا يمكننا، نحن أبناء هذه المنطقة الثقيلة والمربكة والمبهظة، أن نتنازل

عن منابع القوة الخفية من أجل قوانين علومٍ اخترعها من لا يؤمن بأي شيء لا تلمسه يداه أو تراه عيناه . انتهى عهد الانبهار بصنائع من يقتلنا ومن يلغينا ومن لا يرانا أو لا يرغب في أن يرانا . إننا بالقدر الذي نؤمن فيه بالموضوع ، باعتباره ظاهرة تستحق الدرس ، بالقدر الذي نؤمن فيه بالذات باعتبارها تمثّل جوهر الإرادة وجوهر الحرية .

إن الظلم يعلّم أو يدفع إلى أمرين اثنين : إما الانسحاق أمامه والاستسلام له ، أو الاستحكام في خندق الذات والبحث عن أكثر نقاط القوّة وأشدّها فيها .

لا تسوية ولا مساومة

وهؤلاء أجدادنا العظام قد سبقونا في ذلك ، فقد وصل الأمر بالغزالي إلى إلغاء الزمن أمام الوعي للردّ على الهزيمة أمام الفرنجة ، وألغى الجدل من أجل الوحدة ، واستبدل البصر بالبصيرة ، أمّا العز بن عبد السلام ، الذي عاش في مصر المحروسة ، فقد علم الحاكم دوره ، ووضع له مهامه ، وحدّد له وظائفه ، ومشى معه إلى مواجهة من هدم بغداد وحرقها وقتل أهلها قبل سبعمائة وخمسة وأربعين عاماً بالضبط .

لقد قدّمت لنا ثقافتنا – ثقافة هذه الأمّة – النماذج والسقوف العالية في مواجهة الظلم والطغيان ، وهي نماذج تضطرم بالإنسانية ، لم تكن

عنصرية أو فاشية أو مجرمة . إن نماذجنا التي قاومت الظلم فعلت ذلك بأسلحة تختلف عن أسلحة الظالم ، وبعقلية تختلف عن عقلية الظالم ، وهذا هو سرّ النصر أصلاً ، سلاح الظالم لا يشبه سلاح المظلوم .

إن ثقافتنا العربية الإسلامية هي الثقافة الوحيدة التي وقفت طويلاً عند الظلم والطغيان ، وفصلت فيه وحفرت تحته ، لتحذّر منه فكراً أو سلوكاً وممارسة ونتائج . وهي الثقافة الوحيدة التي جعلت من كرامة بني البشر - كونهم بشراً ليس إلاّ - أعلى القيم وأولاها وأكثرها قدسية . هي الثقافة الوحيدة التي جعلت من قتل النفس كقتل الناس جميعاً ، أي أنها ساوت بين الفرد والكون دفعة واحدة ، وكان ذلك قبل اختراع الهيئات الدولية التي تخرس تماماً عند سفك الدم العربي والمسلم في بقاع الأرض كلّها .

إن ثقافتنا العربية الإسلامية هي ثقافة ضدّ الظلم على إطلاقه ، وهي ثقافة الاعتراف بالآخر على إطلاقه ، وهي ثقافة الموضوع ، وهي ثقافة الذات ، وهي ثقافة المادة وثقافة الروح معاً ، وهي ثقافة العمل والتعاون والمشاركة ، وهي ثقافة الانفتاح والحوار والأخذ والعطاء ، وهي ثقافة الحكمة بمحوريها الأفقي والعمودي .

ومن العار علينا جميعاً أن نخجل منها ، أو أن نطمسها أو نحوّرها ، أو نلطّفها أو نجمّلها عند تقديمها للآخرين ، من العار علينا أن نعتذر عنها أو نبررها أو نفسرها كما يرون ، ومن العار أن نعمل على هدمها أو تخريبها أو تشويهها ، ومن العار أن ننتقي منها ما يرضي الآخرين ، أو أن نشطب

منها ما يجعل الآخرين يربتون على أكتافنا . «ومَنْ أَظلم ممَنْ ادّعى على الله كذباً » .

إن الآخر يعتقد جازماً أن المشكلة تتعلّق بمفاهيم ثقافتنا ، وبأنساقها الداخلية ، هذا الآخر النقيض يعتقد أنه الأفضل والأقوى والأكثر حذقاً والأحقّ بالحياة ، وأن مفاهيمه عن الحياة والكون هي الأنجع والأكثر ملاءمةً ، بسبب أنها حقّقت الغنى والقوة ، ولهذا ، فإن هذا الآخر يعتقد أن ثقافتنا هي سبب مشكلته ، فقراً واضطراباً وإرهاباً وهجرة غير شرعية وديكتاتورية ، أو ، وهذا هو الوجه الثاني لرؤية الآخر عنّا ، أنه بسبب من ثقافتنا فإننا نشكّل له الفضاء المريح ، مستهلكين أغنياء ، وأصحاب ثروات لا نستغلّها ، وإخواناً أعداء نتقاتل على الفتات وأحجار الحدود التي اصطنعها ، وعلى الجهتين ، فإن ثقافتنا ، هذه الغنية العريضة صاحبة التأويلات المختلفة ، تدفع الآخر إلى أن يحاول تصميمنا حسب مقاسه وحسب رغباته ، وكان أن وصلنا في بداية القرن الواحد والعشرين إلى أن نصبح أمّة ضحكت من جهلها الأمم .

أسئلة حول ما حدث

وأمام الهزائم لا بدّ من المصارحة ، وأمام احتلالين لا بدّ من المكاشفة ، فما إن انهار العالم الإسلامي رسميـــاً العام 1924 حتى استبدلت وحدة

الروح والثقافة بوحدة العصبيات والعشائر، وكان أن قفزت بلادنا وشعوبنا قفزات غير طبيعية نحو مفاهيم لم تهضم، ولم تأت كثمار طبيعية لحركة تاريخية عادية، وكان أن استولت نخبة متخارجة متغربنة على سدّة الحكم والثقافة، فنقلت مفاهيم عجيبة إلى مجتمعات لم تخرج بعد من طور علاقات البداوة، أو علاقات الإقطاع في أحسن الأحوال.
وكانت نتيجة ذلك مجتمعات متفرقة ممزقة مشوهة الوجه مشوشة الهدف، تتعادى لأبسط الأسباب وتتقاتل لأتفه الدواعي، وكان أن فشلت هذه المجتمعات في الحرب، وفشلت في التنمية، وفشلت حتى في توفير المأكل والمشرب والحياة الكريمة لمواطنيها.
إن هذه النخبة المتخارجة المتغربنة ما كانت لتنجح لولا دعم الآخر، أكان مستعمراً أم مستثمراً، أكان مثقفاً أم أستاذاً في الجامعة أم باحثاً في حقل اجتماعي أو ثقافي .
إن القرن الماضي كان من القرون الرديئة في التاريخ العربي والإسلامي، تميّز بإهانة الثقافة العربية الإسلامية والإساءة إليها، ومحاولة طمسها أو الخجل منها، واستبدل بهذه الثقافة تجارب واجتهادات كثيرة فشلت في تحقيق أي شيء، فلا قوة حققت، ولا وحدة صاغت، ولا أرض حفظت، ولا كرامة أُبقيت. وفي نهاية الأمر، وفي هذه الأيام، تم ارتهان كلّ شيء بيد هذا الآخر الذي انبهرنا به وصفقنا له وسلمناه أجسادنا وأرواحنا .
القرن الماضي كان قرن تجزئة وهزائم، وهو نتاج قرن سابق تميّز بالتحجر

والانغلاق المترافقين بالدسيسة المنظمة، وكلا القرنين تميّزا بتبخيس ما نملك، وامتهان ما عندنا، لصالح ما لا نملك وما هو ليس عندنا. حتى مثقفنا الملتزم كان عليه أن يتجشم عناء التوفيق فيفشل، فيضطر إلى التلفيق أو الترقيع أو كلاهما معاً. وإن نظرة واحدة على ما كتبه الطهطاوي أو محمد عبده أو حتى العقّاد تعطينا فكرة عن كمية الاهتزاز بين ما عندنا وما عندهم .

إن هذا كلّه يدفعنا إلى التساؤل عن أي ثقافة عربية إسلامية نبحث، وما شكلها وما هدفها، عن أي تأويل نتحدث، وما هو المفهوم الذي نريد ! مشروعية هذه الأسئلة قائمة على ما نواجه من هجوم تعدّى الحجة بالحجة، أو الرأي مقابل الرأي، بل هو هجوم الدم بالدم، هجوم الإهانة والابتذال، هجوم السلب والاستلاب، المغطّى بالشرعية الدولية التي لم نعد نعرف مكاييلها أو معاييرها .

ونحن نسأل عن الثقافة العربية الإسلامية، لأن لا ثقافة موحدة لنا غيرها، ولا ثقافة مستهدفة غيرها، ولا ثقافة مستمرة صاعدة غيرها، ولا ثقافة تستطيع الردّ والمجابهة غيرها، ولأنها محفوظة بالنصّ، ومصانة بالكتاب .

وهذه الثقافة التي استهدفت دائماً بالمؤامرة ، مرّة، وبالحرب ، مرّات، تواجَه الآن، مثلما كان في الماضي، من خارجها ومن داخلها. فقد رُميت بالتحجّر، ورميت بالعنصرية، ورميت بالفراغ، ورميت

بالأخروية، ورميت بالقصور، ورميت بعدم الشمولية، ورميت بأن ليس فيها هيجل! على سبيل المثال. كانت هذه الثقافة هدفاً للنّيل والتشويه والطمس.

أعداء من الداخل

إن أعداء هذه الثقافة من غير أبنائها ومن أبنائها، أيضاً، ركّزوا بالقول إن الثقافة العربية الإسلامية ليست علمية، وإنها تنزع إلى مثالية متعالية لا تتماشى مع الواقع، وهذا ما قاد إلى اتهام هذه الثقافة باللاموضوعية، ومن ثم قاد ذلك إلى القول إن كلّ ثقافة لا موضوعية هي ثقافة جاهلة تنزع إلى التعصب، والتعصب عادة ما يضيّق هوامش الحرية والفكر والمنهج العلمي، فقيل إن ثقافتنا تخلو من كلّ ذلك، تخلو من حرية الفرد وحرية العقل وحرية النظر. وهكذا عادت إلينا ثقافتنا لا نعرفها ولا نميزها، وكان علينا، والحال هذه، أن نفهم ثقافتنا من خارجها، أي أن نفهمها بعيون المستشرقين أو المفكّرين والفلاسفة الغربيين. وهكذا، وبقدرة قادر، صار على المثقف فينا أن يعرف أو يدعي معرفة ما قاله هيجل ليفهم تصرّف أبي ذر الغفاري (رضي الله عنه)! وكان هذا من العجب العجاب، وللحقيقة، فإن هذا من سخرية الأقدار، فبدلاً من أن نفهم السياق والنصّ اللذين دفعا أبي ذر إلى ما اندفع إليه، فإن علينا،

والحال هذه، أن نطبّق ما قاله هيجل أو ما رآه على سياق آخر ونصّ آخر وروح أخرى، وهذه خيانة عظمى تُرتكب طوال الوقت بحقّ ثقافتنا. فنحن لا نقيس نماذجنا ولا قيمنا بسقف آخر ومرجعية أخرى، فمن المستحيل أن نزن العطر بالسنتيمترات مثلاً، لأن ذلك خيانة للعطر وخيانة للنظام المتري، أيضاً.

ويجب الاعتراف هنا أنه قد تمّت عملية تشويه ثقافتنا العربية الإسلامية تشويهاً عميقاً، وأنه قد خُلقت أجيال لا تعرف شيئاً عن تاريخها ولا عن أبطالها ولا عن نماذجها العالية.

يجب الاعتراف هنا أنه قد تمت أكبر عملية تحطيم لمنابع قوتنا، وكان من العجب أن نكون نحن الأمة الوحيدة التي تحارب ثقافتها «بالباع والذراع» كما نقول في فلسطين.

يجب الاعتراف أنه قد تم خلال القرن الماضي ما أراده الآخر لنا، من حيث فصلنا عن لغتنا، وإبعادنا عن روح ثقافتنا، وأنه تمّ تحقيق أو إنجاز مجتمع أو مجتمعات عربية إسلامية لا تمارس عروبتها ولا تمارس إسلامها، وذلك من خلال عملية احتلال حقيقية للأرض والوعي معاً.

نعم، يجب الاعتراف أننا محتلون أرضاً ووعياً، فالوعي الذي تشكل خلال القرن الماضي هو وعي ناقص ومجزّأ وواهم وقاصر ومبهور ومنبهر ويتخذ من دون الله أرباباً، ولك أن تسمي هذه الأرباب ماركس أو هيجل أو حتى مايكل جاكسون أو شاكيرا، إن أردت.

نحن والآخر المستبدّ

إن إنجازات الوعي العربي في القرن الماضي لم تحقق شيئاً يستحق الإشارة إليه، فالمشروع النهضوي العربي الذي شهد مداً وشعبية لم يستطع أن يحقق الحرية أو الديمقراطية أو الخبز، وها نحن نرى نتيجة ذلك احتلالين بغيضين يجثمان على الأرض العربية. حتى البناءات العقلية والنظرية التي أنجزها هذا الوعي تراوحت بين انفتاحية على الآخر مريبة، وانغلاقية على الذات لم تؤد إلى نتائج. ولا نقول، والحال هذه، كما قال منظّرو الثلاثينيات والأربعينيات؛ تلك المقولة الساذجة والمربكة بالتوفيق، ومحاولة أخذ الصالح من هنا وهناك، وطرح الطالح من هنا وهناك. التاريخ هو في نهاية الأمر ليس تجربة مخبرية أو تأملات ذهنية، التاريخ جهد وصراع، التاريخ دراما حقيقية. ولأنه كذلك، فإننا نقول إنه لا بد من الصراع الحقيقي بين الرؤى والحضارات. نكذب على أنفسنا عندما نقول إن هناك ما يسمّى بحوار الحضارات، لأن الحوار يحتاج إلى النديّة، الحوار يفترض المساواة، الحوار يفترض وجود الخيارات، الحوار يفترض الاعتراف، ولكننا لا نمتلك كل ما سبق، فلا نتمتع بالندية مع الآخر، ولا نملك خيارات ولا نملك اعترافاً، فأي حوار هذا الذي نسعى إليه، إنهم يحتلوننا ويصادرون ثرواتنا ويقتلون إنساننا، ثم بعد ذلك نتحدّث عن حوار؟ القوي لا يحاور الضعيف، إنه يأمره، إنه يلغيه، إنه يعيد إنتاجه على مقاسه تماماً.

ولنا في ثقافتنا العربية الإسلامية خير دليل على ذلك، فقد كانت واضحة في ما يخالفها، وكانت محاورة فيما تستطيع الحوار فيه، ولأنها قوية ومتماسكة وذات إجابات، أعادت إنتاج كلّ ذلك بما يتلاءم معها، لم تتنازل ولم تصالح ولم تصل إلى تسويات.

نحن نحلم

يجب القول هنا بفخر إننا أصحاب رسالة كونية، رسالة واضحة تعمل لصالح الإنسان ولصالح البيئة ولصالح الخير والحقّ والجمال. يجب القول هنا إننا أصحاب رؤية متكاملة تهدف إلى خير الإنسان على الأرض وفي السماء، وإن رسالتنا متوازنة وعادلة وذات هدف وذات جهد، وللمناسبة فإن هيجل لم يقل ذلك ولم يشر إليه، بل كان عنصرياً مجّد بروسيا وأهمل العرب والمسلمين، وقد اعتبر أن الدولة البروسية هي خير تعبير عن العقل الجرماني في سلم تطوره الحلزوني، ولم يعرف هيجل أبداً أن الله قال في محكم كتابه العزيز: «وتلك الأيام نداولها بين الناس»، والتداول أفضل وأدق من سلم هيجل الحلزوني.

أحلم بمشروع عربي نهضوي في هذا القرن، يخلو من الانبهار بغير نماذجنا، مشروع عربي إسلامي نهضوي يخترع نظرية من تاريخه، ويضع رؤيته العقلية من بيئته، ويصوغ قوانينه بناء على المعطيات حوله،

لا أن يستوردها جاهزة وخاضعة لشروط صناديق التمويل السياسي والثقافي والمالي .

أحلم بمشروع عربي إسلامي نهضوي في هذا القرن لا ينبهر بالآخر فيستسلم له سياسياً، ولا ينقاد للآخر فيسلمه كل شيء، ولا يخضع له فلا تعود له شخصية أو ملامح .

لنأخذ، مثالاً على ذلك، فرويد وداروين وكيف تم امتصاصهما هنا في منطقتنا، وكيف أن الانبهار بما قالاه جعل أعلاماً عندنا يلوون مقاصد النصّ المقدس حتى يطيع ما قاله هذان الرجلان .

ثم لنأخذ ماركس مثالاً، أيضاً، وكيف صار الدين أفيوناً، ولنأخذ غرامشي وجاك دريدا وكولن ويلسون وت. س. إليوت. والأمر مضحك حقاً، فالغربة التي يتحدّث عنها إليوت، مثلاً، ما علاقتنا بها، وما علاقتنا بالنصّ الروائي الذي كتبه جيمس جويس ؟! وهل الشخصية العربية الإسلامية التي تعيش في القاهرة أو بغداد أو القدس مفككة وباهتة ومنفلتة كما هي في مدينة غربية تدخل مرحلة الإمبريالية ؟ ألم نستسلم لكل شيء ؟! ألم نتخلّ عن رؤانا الجمالية وقدراتنا التذوقية من أجل الآخر ؟!

هل إلى هذا الحدّ كانت تجربتنا التاريخية والحضارية تافهة حتى لا تستحق رؤية جمالية وثقافية خاصة بها ؟! هل إلى هذا الحدّ بلغت السطحية في تجاربنا إلى درجة أن رؤانا الجمالية والنقدية صارت تأتي معلبة من الغرب

تماماً كالسيارات والتلفزيونات . وقد بلغ الأمر من الفانتازيا السوداء أن صار يكتب النقد عندنا بتعابير لا يفهمها حتى المشتغلون بهذا الباب .

وَقسْ على ذلك كل شيء، السينما العربية - في معظمها - فشلت في أنَ تكون رافعة جمالية وحضارية، وظلّت في حدود خدمة نخبة معينة، تعاني فصاماً في فهم مجتمعنا وتاريخه ومرحلته الحضارية، وانحدر ذلك كلّه إلى الدرجة التي صرنا نرى فيها حتى «الفيديو كليب» ينقل إلينا بيئة طبيعية لا تُشبه بيئتنا الطبيعية، وكأن القائمين على الأمر يخجلون حتى من تضاريسنا التي وهبنا الله إياها .

الرواية العربية عبّرت عن الارتباك والاضطراب، وانحازت إلى متجه لا يعبر حقاً عن آمال هذا الشعب المتعطّش إلى الالتحام بمنابع ثقافته وأصول حضارته، واستُعملت الرواية كإحدى الروافع الثقافية التغريبية إلى حد كبير .

لماذا تم استبعاد الإسلام طوال قرن كامل ؟! لماذا كان يُخجَل منه ؟! لماذا لم تتحوّل مقولاته ونماذجه إلى سلوكات يومية ؟! لماذا حدثت تلك القطيعة معه على مستوى الإعلام والثقافة وحتى الحياة العادية ؟!

III

البحث عن القوة

إن البُنى العقلية التي تمّت المراهنة عليها خلال القرن العشرين، وأخذت فرصتها في التعبير عن نفسها، إما سلطة سياسية أو تياراً فكرياً قاهراً، أثبتت أنها قاصرة في الامتحان، وفاشلة في الميدان، وذلك أنها لم تستطع أن تحوّل الجماهير من حالة إلى حالة، ولم تستطع أن تجنّدها طواعية بحيث تأخذ منها أفضل ما فيها .

ولو حاولنا تلمس أهم ميزات تلك البنى العقلية لقلنا إنها تميّزت بالترقيع الفكري، والتلفيق النظري، ومحاولة حشر الواقع أو تصغيره أو تكبيره ليناسب النظرية المستوردة، بحيث كان الواقع وكذلك النظرية يدعوان إلى السخرية .

إن ادّعاء مصلحة الجماهير كان على حساب شرع الله، وإن ادّعاء مصلحة الطائفة أو العشيرة كان على حساب الوطن، والأنكى من ذلك والأهم أن كل ذلك أدى فيما أدى إليه إلى الارتماء في أحضان العدو، تحت مسميات كثيرة ليس أهمها مصلحة الوطن، أيضاً .

وعندما تصل الأمة أو بعضها إلى الارتماء في أحضان العدو فإن ذلك هو الحضيض في كلّ شيء. وفي فلسطين، حيث الاشتباك اليومي مع

المحتلّ يستفز الدم والأسئلة، فإن سؤال الثقافة يحوم فوق الناس وفوق الأرض في كلّ لحظة .

إذ إن كلّ فلسطيني في أرضه يتعرّض للقتل والإذلال الجسدي والنفسي والفكري سيسأل هذا السؤال : ما الذي حلّ بأمّتي ؟! أين سندي العربي؟! لماذا أترك وحيداً أمام أكبر وأعرض وأشرس آلة للقتل والإذلال والاستلاب المادي والروحي ؟!

إن سؤال الثقافة الذي قد يغيب في أماكن كثيرة حاضر بأشد الصور في فلسطين في كلّ لحظة .

فالفلسطيني، تحت الاحتلال، كان عليه أن يبحث عن أقوى ما في روحه ليصمد، وعن أصلب ما في أعماقه ليبقى، وعن أشدّ الأسلحة مضاء ليتحدّى، فكان أن بحث في الأرض التي يعرفها، وحفر في المصطلح الذي يألفه، وكان أن استند إلى ما هو قائم أصلاً ليؤسس عليه .

إن العملية المعقّدة التي تسمى الصمود، وإن الجهد الخارق الذي ابتدعه الفلسطيني للبقاء والمقاومة، لم يتما من خلال مؤسسة الحزب فقط، وليس من خلال العمل الكفاحي المنظّم وحسب، إذا قلنا ذلك نكون قد تجنبنا الحقيقة، فهذه العمليات الاجتماعية والنفسية المعقّدة وجدت تعبيرها الأقوى في ذلك البناء الروحي العميق الذي لا يتزلزل ولا يتزعزع، القاضي بالبقاء والمقاومة والاستمرار والصمود .

إن الحزب والعمل الكفاحي المنظّم لم يستقطبا معظم الناس، وإن بعض

الأحزاب والحركات تكاد تكون مجرّد أسماء لا علاقة لها بالجمهور الذي تدّعيه، والآن في هذا الظرف ، بالذات، عادت معظم تلك النخب السياسية والتنظيمية إلى ثقافة الجمهور نفسه، واعترفت بها وبدأت بالتعامل معها بعد أن كانت تلك الحركات نفسها تهاجم تلك الثقافة، بل تستنكرها وتعيّرها بالجمود والتحجّر .

في لحظة الاشتباك لا يتشابه الأعداء، ولا يتماثلون، بل يختلفون ويفترقون ويمتحون من آبار مختلفة .

الفلسطيني الذي تحدّى طوال هذه السنوات، وكان خير معبّر عن أقوى ما في الثقافة العربية الإسلامية شجاعة وفداء وتضحية ووضوحاً وانتماء، ما كان له أن يكون كذلك لولا أنه ذراع مفتولة من جسد عارم ومعافى من ثقافة تمدّه بالنماذج والمكافآت، وربما يكون من نافلة القول إن الشهداء الذين ينفّذون مهامهم الفدائية من الحركات اليسارية يشيرون في وصاياهم الأخيرة إلى إيمانهم وإلى نشدانهم الجنّة، وكأن يساريتهم مجرّد قشرة خارجية ليس إلاّ، وكأنّ ملاقاة الموت تكشف معدنهم واتجاههم بالضبط .

ولا يمكن تغريب الأمة عن روحها، ولا يمكن تزييف المنطلقات الأولى، ولهذا كانت هذه المنطلقات هي المستهدفة .

ميزات الثقافة تحت الاحتلال

ولكن، وحتى نضع الأمور في نصابها وتاريخيتها، فإن المنتج الثقافي الذي تمّ إنجازه خلال سنوات الاحتلال تميّز بما يلي :

أولاً : التعددية، وهي تعددية في المرجعيات وتعددية في المصطلح، وكانت انعكاساً لما يجري في العالم من ثنائيات متضادة وأقطاب متصارعة، وكان أن انقسم العالم العربي بين كلّ هذه الثنائيات، ولكن ما كان يجري بين النخب السياسية والثقافية العربية كان لا يعني أحداً، بل بقي ثرثرة على السطح، أنتج انقسامات ودماء كثيرة من أجل قضايا الأقطاب الأقوى. ولهذا ، فإن كل الثرثرة التي قيلت يوماً ما نسيت تماماً وبقيت الدماء والحدود. وعلى الساحة الفلسطينية، رأينا تلك التعددية حيث اليسار ينقسم بشكل أميبي واليمين يتراقص على الحبال المختلفة بسرعة الضوء، ولكن ذلك أنتج خطاباً ثقافياً متعدد الاتجاهات والميول، نادى بعضها بالثورة الأبدية ، فيما نادى بعضها الآخر بالتطبيع أو بأسوأ منه .

ثانياً : الترميز، ذلك أن المنتج الثقافي الفلسطيني كان نتاجاً مرمزاً وإشارياً ومختزلاً، يكتفي بالتلميح عن التصريح، ولهذا ، تميّز هذا

الخطاب بالشعارية، واكتفى بالعام عن الخاص، لم يدخل هذا الخطاب بالتفاصيل والخطة اليومية ومواجهة الحياة المعيشة. ولهذا ، كان هناك انفصام بين الحياة السياسية للفلسطيني والحياة اليومية، واستطاع الاحتلال ، وغير الاحتلال ، أن يتحكّم باليومي من حياة الفلسطيني بحيث يغير أو يحوّر من خياراته واختياراته. ومع الضغط اليومي واستمراره وتواصله وقوته ، فإن الشعارات تهاوت الواحد تلو الآخر حتّى تم التصريح بنبذها على الملأ .

ثالثاً : تمجيد الصورة المفترضة عن الفلسطيني، أي أن المنتج الثقافي فلسطيني وقع في افتراضه، ولم يتحدّث عما يراه ويلمسه، وهكذا، صارت هناك فجوة كبيرة بين الصورة والمثال، هناك مبررات لذلك، فرضها الواقع وظروف المواجهة، ولكن الصورة المفترضة عن الفلسطيني أبعدته عن شروطه الإنسانية ، فصار فوق الزمان والمكان، واكتسب قدرات خارقة ولغة سماوية، ولكن ذلك كلّه انكسر، أيضاً، أمام المعطيات الجديدة، فالفلسطيني إنسان مثله مثل غيره، ينتصر وينهزم، ينكسر ويقوم .

رابعاً : وقوع الخطاب الفلسطيني في ما يمكن تسميته بخطاب الفلسطنة ذي الرائحة القطرية الضيّقة، بحيث كان بعض هذا الخطاب يحاول قطع

الأواصر والعلائق مع البعد العروبي والعقدي، وقد يبرر أصحاب هذا التيّار أنفسهم بالكلام عن التخلّف والتردي العربيين، ولكن هذا الكلام لا يثبت أمام الحقائق الموضوعية، فلا يمكن لخطاب قطري أن ينجح أو يسود أو ينتصر، بالمعنى الشامل للنصر. وتجدر الإشارة هنا إلى أن الكثيرين أكّدوا الذات الفلسطينية، لأنها مهددة بالإلغاء، ولم يكن تأكيدهم إيماناً بالقطرية الكريهة .

خامساً : جهوية الخطاب الفلسطيني فرضت عليه تمايزاً واختلافاً واضحين، بهنانم خطنمب صنمدر عن المناطق التي نمحتلنمت انمعام -، ، والمناطق التي احتلّت العام 67، والمنافي العربية المختلفة ، والمنافي العالمية الأبعد، ما خلق خطاباً فلسطينياً مناطقياً له أولويات مختلفة واستراتيجيات متباينة، الأمر الذي جعل من هذا الخطاب لا يُفهم إلاّ من خلال مكانه، بحيث صار يقرأ ويسمع مع الشرح والتحليل، وكأنّه خطاب مبرّر سلفاً، أو كأنّه خطاب يحتاج إلى تبرير ليفهم أو يُستوعب.

سادساً : تميّز الخطـــاب الثقافي الفلسطيني في مناطق 67 بأنه خطاب الضرورة؛ بمعنى أنه نشأ في ظرف استثنائي، تحت احتلال استثنائي، ما جعل هذا الخطاب منبرياً ينضح بالتحدّي والغضب غير مبال بالأناقة اللفظية أو الشكلية قدر اهتمامه بمضمونه وأثره على الجمهور. وبسبب

من الرقابة العسكرية والملاحقة ، كان على هذا الخطاب أن يتواطأ مع جمهوره على رموزه ومرجعياته الذوقية والجمالية والسياسية والثقافية، ولهذا ، فإن معظم هذا النتاج قد لا يُفهم خارج مكانه، بسبب محليته المغرقة، وبسبب رمزيته التي يتعامل بها الجمهور .

سابعاً : طغيان السياسي على الثقافي، والجمعي على الفردي، ذلك أن الخطاب الثقافي الفلسطيني الذي حدّد مهامه في مقاومة الاحتلال وتحديه اضطر إلى ترتيب أولوياته ، بحيث غابت الاجتهادات الشخصية وتأملات الذات والبحوث النظرية والمغامرات الجمالية .

ثامناً : يجب القول هنا إن الخطاب الثقافي الفلسطيني، خصوصا في مناطـــق 67، كان بجهود فردية ومبادرات شخصية، تم استيعابها فيما بعد من قبل منظمة التحرير الفلسطينية، الأمر الذي أدّى إلى ظهور العديد من المنابر الأدبية والفكرية والسياسية التي أسهمت في بلورة خطاب حاولنا رصد مميزاته .
أما بعد اتفاق أوسلو، الذي كان بمثابة زلزال حقيقي على المستوى السياسي والثقافي وحتى النفسي، فقد كان ذروة زلازل أخرى سبقته تمثلت في انهيار الاتحاد السوفييتي وحرب الخليج، وأدّت إلى انكسار المتحكّم في الخطابين العام والخاص .

بعد هذه الزلازل، وبعد هذه الانهيارات الكبيرة، لم يعد بالإمكان التغطية على العيوب التي يعاني منها ليس النظام العربي الرسمي، فقط، وإنما تلك البنى العقلية السائدة التي انتهت إلى ما انتهت إليه .

ميزات ثقافة ما بعد أوسلو

وفي مناطق 67، نال الفلسطينيون ما نال إخوتهم، أيضاً، من البلبلة والاضطراب، إذ انكفأ الخطاب الثقافي الفلسطيني السائد على نفسه، وحاول أن يجد صيغة للتوازن والتفاعل، هذه العملية المضنية على المستويات جميعاً أظهرت نتاجاً ثقافياً مختلفاً عن ذلك الذي ظهر خلال سنيّ الاحتلال، ويمكن الإشارة إلى ميزات هذا النتاج بأنّه :

أولاً : حاول أن يبتعد عن السياسي وعن مقولاته حتى ينقذ نفسه من ورطة التبرير والتفسير والشرح. ولأول مرّة، نرى خطاباً ثقافياً لا علاقه له بأولويات السياسي أو همومه .

ثانياً : صار هذا الخطاب ذاتياً وشخصياً، إذ إنّ المثقف صار أكثر شجاعة في التعبير عن همومه وهواجسه الشخصية بعد أن كان مرتهناً للقضايا العامة .

ثالثاً : صار هذا الخطاب يهتم بالذاكرة والتراث ، ويحاول تلمّس مرجعياته بعد أن حطّم ، أو اكتشف ، زيف مرجعيات كثيرة .

رابعاً : تحوّل الخطاب إلى خطاب نقدي أكثر فأكثر ، وتجرّأ هذا الخطاب على مناقشة حتى الرموز الكبرى ، الأمر الذي لم يكن موجوداً من قبل .

خامساً : بعض هذا الخطاب تجاسر على طرح قضايا كانت كالمحرمات ، مثل الاعتراف بالآخر والتطبيع معه ، بل والتعايش معه .

سادساً : تميّزت فترة ما بعد أوسلو بالاتجاه نحو الرواية ، باعتبار أن الرواية نوع من النضج الاجتماعي والسياسي ، ومحتوى للتأمل ، ما يدل على شعور ما بالاستقرار يسمح بذلك .
ومع اشتداد الزلازل وتعميقها من خلال هجمة عولمية تقودها الولايات المتحدّة تهدف إلى استلاب الثروة ، وتذرير الكيانات طائفياً وإثنياً ودينياً ، وسحق الوعي ، وطمس الهوية ، وتذويب الخصوصيات ، فإن سؤال الثقافة أصبح أكثر إلحاحاً وضرورة ، ذلك أن المثقف أصبح حقّاً هو القلعة الأخيرة التي يجب أن لا تستسلم أبداً .

المثقف والعولمة

العولمة – بوجهها البشع الذي نقصد – لم تعد تكتفي باحتلال الوعي، فقط، بل تعدّته إلى احتلال الأرض. واحتلال الأرض يعني مصادرة الإرادة والقدرة على التفتيت والتجزئة، وبالتالي، فإن المثقف العربي مدعو الآن – كما كان مدعواً في فترات تاريخية مشابهة – إلى البحث عن محتوى فكري وعقدي يتجاوز الفئوية والقطرية والعشائرية والوطنية والمصلحة والمذهبية، ومدعو إلى التوقّف عن الانبهار بمن يذبحه ويحتلّه ويستلب ثرواته ويصادر إرادته، ومدعو إلى البحث عن نظرية واقعية تنبع من بيئتها ووفية لترابها وروحها، ومدعو إلى إعادة النظر فيما تمّ إنجازه من قبل باعتباره مجرّد فشل ليس إلاّ، ومدعو إلى إدراك أن التقليد والتضاؤل والتقزّم أمام الآخرين لا يفيد، ومدعو إلى اعتبار أن أفكاراً، مثل الحوار، ومفاهيم غربية، مثل حقوق الإنسان والليبرالية والديمقراطية وغيرها، هي مسميات برّاقة تخفي تحتها ما يشبه الامتيازات الأجنبية التي حصلت عليها دول الغرب في القرن التاسع عشر، أو أنها كلام حقّ يراد به باطل.

المثقف العربي حتى يخلق المناعة الفكرية، وحتى يكتسبها ويكسبها لغيره، فإنّه يقف اليوم أمام خيارين لا ثالث لهما: إما الاستسلام وإما المقاومة. ليس هناك محصلة أخرى بين هذين المتجهين، لا يمكن تجميل

الاحتلال ولا يمكن تزويق الاستسلام، ذلك أنه لا يمكن تجميل القتل والموت والدمار والإذلال.
المناعة الفكرية التي نقصدها تنبع من ذلك المحتوى العقدي الذي يتجاوز الأمكنة والأشخاص والمصالح والفروق البشرية ليصوغ قانوناً أبدياً لا نهائي يتمثل في «واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا»، حبل الله ينقذنا من الوقوع في الهوة المميتة السحيقة، ويبعدنا عن الظلمة والفرقة والذلّ، وهو قانون يعلو على أي سفسطة أو أي كلام يتذرّع بالعملية والواقعية والتسوية مع الضغوطات.
مرّة أخرى، أرى العز بن عبد السلام، في قاهرة المعزّ، يستلّ من صدره أقوى ما يمكن للأمة أن تتسلّح به، فيوحّد به الناس، ثم يخرج بهم إلى ملاقاة المغول، وينتصر عليهم، مثال قديم ما زال جديداً وكأنّه حدث البارحة.

IV

تفصيل للمشهد

أشرنا سريعاً إلى أنّ ثمّة استراتيجيات حاسمة تنطلق منها الولايات المتحدّة في سياساتها، خصوصاً بعد نجاحها البارز في السيطرة على

قلب العالم، وتفكيك عقل العالم، وإلحاق أطراف العالم بها وبمصالحها، إلاّ أنّ التطلّعات الجديدة لأمريكا هي الدافع الأكيد لما تقوم به، ما يوضّح خطواتها المعلنة للقاصي والداني، بصلافة وحزم ووقاحة، وتتمثّل هذه التطلّعات التي تعد قرارات لا مندوحة عنها في أن أمريكا يجب عليها أن تسبق العالم المتقدّم في كلّ المجالات خمس عشرة سنة على الأقل، وعلى العالم أن يتفهّم حاجة أمريكا للقيام بضربات استباقية ضد بعض القوى أو الدول على هذا الكوكب لحفظ أمنها القومي. كما على العالم أن يدرك أهمية أن تتدخل أمريكا في أي قضية في الأرض، ويتم الأخذ بتوصياتها ومداخلاتها لحلّ هذه القضية، كما أن على شعوب الأرض أن تبدأ بالاستعداد لقبول القيم والأفكار والمبادئ والثقافة الأمريكية، وتتبنّى تفسيراتها للمفاهيم البشرية. كما على أمريكا أن تحفظ لإسرائيل تقدمها وتميّزها النوعي في المنطقة.

إن هذه القرارات تعني أن ثمّة طوفاناً هائلاً يهدر ويقترب ليجرف ثقافات الشعوب، خصوصاً تلك الضعيفة، علماً أن آليات هذا الطوفان وإمكاناته محمولة على أذرع ومنابر ومؤسسات تقنية عالية، ما يسهّل عملية الإغراق الأمريكي لتلك الشعوب، بمعنى أن ثمة تهديداً واقعاً يُحدّق في عالمنا العربي والإسلامي، ويستهدف طمر ثقافتنا واستبدال ثقافة أمريكية جديدة بها، وهذا هو الخطر الأول. هذا الخطر يستهدف فيما يستهدف الشعب الفلسطيني، أيضاً، هذا الشعب الذي يتعرّض

أكثر من غيره إلى سياسات استراتيجية حاسمة أخرى للقضاء عليه، وخلق حالة من العدمية فيه بعد استلابه وتغريبه وتجهيله وقمعه، أي أن الشعب الفلسطيني يتعرّض إلى حملتين، فيما يتعرّض عمقه العربي والإسلامي إلى حملة واحدة، وهذا يعني أن على الشعب الفلسطيني مهمّتين، أو لنقل إن عليه أن يحارب على جبهتين، على الأقل فيما يتعلّق بتحصين ذاته ثقافياً على وجه الخصوص .

الإلغاء والإلهاء

ثمّة فعل احتلالي ممنهج ، يتكئ على آخر نظريات ثورة الاتصالات، يهدف إلى تفريغ الإنسان الفلسطيني من محتواه الثقافي والوطني والحضاري، ويشترك مع هذا الفعل ما تصبّه الولايات المتحدة وأذرعها الإعلامية في المنطقة، لتعميق حالة الضياع والعدمية في المجتمع الفلسطيني، ويبدأ هذا الفعل من رصد كلّ المؤسسات الأهلية والرسمية التي تنتج الفرد، بحيث يقوم هذا الفعل بتغذية تلك المصادر بمضامينه بعد أن يحطّم المضامين التي تسعى المؤسسات المنتجة للثقافة إلى إيصالها للأفراد ، أو يشوهها ، أو يلغيها .

وعلى سبيل المثال، ثمّة ثقافة ومعطيات جاهزة ومحدّدة تصبّها آليات الاحتلال الإسرائيلي والأمريكي عبر وسائل الإعلام والمدارس

والجامعات وبيوت العبادة والمؤسسات غير الحكومية وحتى المؤسسات الرسمية، تبدأ من مرحلة الطفولة الأولى، مروراً بمراحل الطفولة والمراهقة والنضج، وانتهاء بمرحلة الإنتاج، بشكل مباشر وغير مباشر، يساعدها في ذلك حالة التحوّل السياسي والاجتماعي وظروف الشعب الفلسطيني الاستثنائية، وضعف السلطة الوطنية الفلسطينية وحاجتها إلى الدعم المالي والسياسي، وحالة التعويم التي يشهدها المجتمع الفلسطيني، والتي حالت دون بلوغه مرحلة التأصيل أو التكريس السياسي، ما يفتح ثغرات كبيرة تنفذ منها سموم الاحتلال بشيء من اليسر والسهولة.

ولعلّ عملية حقن الفلسطيني، والعربي بصورة عامة، بثقافة جديدة، قد سبقتها عمليات تحطيم للمبادئ الكبرى وتشويه الأرضية العقدية، وصاحبتها عمليات التدمير العنيف والقتل، والتشظية وإيقاظ الإثنيات، وخلق الأمم المتغايرة داخل الأمة الواحدة، وتمتين الفواصل وتعميق حالات الجهل والأمراض والانشغال بصغائر الأمور، ثم تمّت عملية نقل الوعي العام والذائقة الجمعية والموقف المشترك من حالة الانسجام والصحّة والثبات إلى وضع يمكن معه قبول ما ستصبّه آليات الاحتلال في الأفراد الذين سبق أن تمّ العمل على إضعاف مناعتهم وهتك حصانتهم، الأمر الذي أنتج واقعاً يضجّ بالنتوءات والإحباط واليأس. وربّما لم ينتبه الكثيرون إلى أن الاحتلال منشغل بأدقّ تفاصيل حالتنا

الثقافية، ووعينا بشكل عام. لهذا، نرى ما وصل إليه خطابنا الإعلامي والتعليمي والمؤسسي والاقتصادي والاجتماعي والسياسي من حالة تستدعي إعلان ناقوس الخطر، وإطلاق صرخة مدويّة لننتبه إلى ما يراد لنا من هشاشة وضعف وإلغاء.

أنموذج: ما وقع على المصطلح

سنسوق هنا مثالاً يتعلّق بالمصطلح الإعلامي السياسي، لندلل على ما وقع على المصطلح من فعل وعمل وترتيب حاذق، ليكون المصطلح أداة تخدم الآخر، بعد نقله من حالة إلى حالة، بهدف نقل وعينا من حالة إلى أخرى:

ليس غريباً أن تفيد العلوم من بعضها؛ بمعنى أن يأخذ العالِم من الأديب، والفيزيائي من الرياضي، والفلكي من المؤرخ... إلخ، بل أمر طبيعي أن تسيل المعارف بعضها على بعض، وتتقاطع، وتتزاوج، وتتضافر، وتنتج معرفة جديدة... وهكذا.

غير أن أَخْذَ السياسي أو الإعلامي من علوم الجنس، طريقةً أو أسلوباً، أمر فيه إغراء جديد وطرافة حديثة، يستوقفاننا ويوقظان انتباهنا.

والطريقة هي «الإستربتيز» أو التعرّي قطعةً قطعة! حيث تقف امرأة على خشبة مرتفعة، أمام اللهاث المكتوم والعيون المندفعة، وتبدأ بخلع ملابسها تدريجياً!

وكذلك السياسيون الذين يصنعون خطابنا الإعلامي، لينقلوا عقولنا أو مواقفنا من نقطة إلى أخرى، يريدون إيصالنا إليها، تدريجياً، عبر ترديدنا المصطلح الذي ينتقل بدوره، تدريجياً، من مستوىً إلى آخر، حتى نصل إلى ما يريدون. أي ثمة رسم بياني للمصطلح العالي ولتدرّجه حتى يصل إلى القاع، فمثلاً: كان السياسيون، في البداية، يطلقون مصطلح «العمليات الاستشهادية» على تلك العمليات التي يقوم بها نفر من الشباب في تجمعات إسرائيلية، في مطلع الانتفاضة هذه، ثم خفّ المصطلح وتم انتقاصه ليصبح «العمليات الفدائية»، ومن ثم «العمليات التفجيرية»، ثم «العمليات الانتحارية»، ثم «العمليات الإرهابية». وبالتدقيق في هذا الهبوط المتدرّج المدروس، يتبين أنه ليس سوى نقل الوعي من حالة إلى أخرى، للقبول بمفهوم يتم تكريسه عبر المصطلح الأخير.

هذه الكيفية تبدو حاذقة وجديدة، لكنها ليست كذلك، حيث تم تطبيقها على الكثير من القرارات الاستراتيجية الكبيرة، المتعلّقة بأمتنا العربية وبقضيتنا الفلسطينية! منها قرارات القمم العربية التي تدرّجت من «اللاءات الثلاث» في الخرطوم، إلى «قبول الصلح» في القمة الأخيرة.

وكذلك قرارات المجالس الوطنية الفلسطينية التي هبطت من «تحرير كامل التراب» إلى توسّل العالم لتطبيق ما يسمّى «خارطة الطريق»!

ثمة عملية «إستربتيز» مرّت بها قضايانا العربية، حيث كانت هناك

محطات «خلع» شكّلت نقاط تحوّل عميقة في وعينا الجمْعي، وحَمّلنا من موقف إلى آخر تحت دعاوى موضوعية وذاتية وظروف قاهرة !
وهنا يبرز غياب المثقفين والمفكرين الذين تماهوا مع ذلك التنازل، وهبطوا إلى الدرك الأسفل، الذي أعدّه الآخرون لنا جميعاً، دون أن يثيروا خطورة هذا الهبوط غير الاضطراري إلى أرض الاستسلام والحيف، بل ما زالت تلك السلالم المشدودة منصوبةً لكل فئات أمتنا، لإنزالها من قمة مصالحها ومبادئها وأحلامها إلى هاوية التردّي والقبول بما يقدّمه الآخر النقيض .
وللتأكيد على أن مطابخ المحتلّين الغزاة ما زالت تُنتج لنا المصطلح المطلوب، وتصدّر لوسائلنا الإعلامية القوالب الجاهزة التي بات يتلقفها معظم السياسيين والإعلاميين والكتّاب العرب، تبرز آلاف المصطلحات السياسية والإعلامية الدخيلة التي تفتّ في وعينا، وتكسر مواقفنا، وتؤسس لفهم سياسي وعقدي جديدين، يخدمان الآخر ويحققان مآربه، مثل تلك المصطلحات التي برزت في العقد الأخير ورحنا ندحرجها، دون وعي منا، لتكبر مثل كرة الثلج التي غطّت على الحقائق، وطمست معالم الحقيقة والجريمة !
فمثلاً، يستخدم الاحتلال الإسرائيلي والأمريكي، ومن لفّ لفهما، المئات من المصطلحات، في سياق تحقيق إدانتنا، وتعطي مدلولات جديدة، تنسخ المضمون القديم للمصطلح، لنجد أنفسنا، في النهاية،

مثل الببغاء التي تردّد طلب قطع رأسها بيد الدخيل الذي احتل بيت صاحبها. ولأن الاحتلال يدرك خطورة المصطلح وتكراره، راح يعطي للأماكن والجغرافيا أسماءه ليلغي التاريخ الأصلي؛ تاريخنا، ويلغي بجغرافيته الجديدة جغرافيتنا وأسماءنا القديمة، بدءاً من أسماء القرى التي دمرتها دولة الاحتلال، مع النكبة وقبلها، مروراً بحائط البراق، وليس انتهاءً بأسماء الشوارع والمداخل والأبواب، والألفاظ الجديدة التي رُحنا نُرصّع بها لغتنا اليومية، ونسينا أنها هجينة مُقحمة، حتى صدق قول القائل: إنهم يحتلّون لغتنا، أيضاً. عداك عن عشرات المصطلحات والمفاهيم التي عُكسَت مضامينها وراحت تقلب الحقائق رأساً على عقب، بدءاً من مفهوم «الإرهاب» و«المقاومة» ومروراً بـ«الاحتلال» و«تحرير الشعوب»، وليس انتهاءً بـ«السلام» و«التعاون بين الدول».

بقي أن نشير إلى أن الكثير من المؤسسات غير الحكومية وجمعيات حقوق المواطن والمرأة والإنسان ودعاة الديمقراطية لهم تأثير خطير في تحوير المصطلح، واللعب بأولويات تقديم مصطلح على غيره، وتغليب مفهوم على آخر، خدمة للآخر النقيض، بقصد أو من دون قصد، فمثلاً يُطالب هؤلاء بتحقيق حقّ المرأة كأولوية على حق تقرير المصير، وكأننا لسنا محتلّين من النهر إلى البحر بكافة فئاتنا، أو يطالبون السلطة الفلسطينية بحفظ حقوق المواطن - وهذا مطلب حق -، ولا يطالبون العالم

بالوقوف في وجه غوائل «إسرائيل» التي تنال من حقوق الإنسان والحيوان والشجر في فلسطين، أو يُلحفون في حفظ حرية التعبير والتعددية السياسية ليكون ذلك مدخلاً للنّيل من الثوابت الوطنية، وجعل الخيانة وجهة نظر.

إننا مع كل أشكال الحرية وتكريس الحقوق، ولا شرط على ذلك إلا المزيد منها، لكنني أعني الرّد على وجهة النظر بوجهة نظر أخرى، وهذا من باب ممارسة الحرية والأخذ بالحقوق وتعميقها في حياتنا المعيشة.

الملاحظة الأخيرة هي أن الاحتلال ووسائله وأذرعه والجمعيات والمنظمات غير الحكومية التابعة له لا تعمل منفردة، بقدر ما يجمعها خيط واحد، ويقف أمامها «مايسترو» واحد يوزع الأدوار، ليقدّموا لنا في النهاية «أوركسترا» متكاملة، تأخذ الأبصار والأسماع والأفئدة!

V

ملخّص عام

إن وصف المشكلة بموضوعية ودقّة جزء مهم من حلّها، وإن المشكلة التي نواجهها، نحن العرب والمسلمين، على اختلاف مواقعنا ومهامّنا وأدوارنا والتحديات التي نواجهها، يمكن تلخيصها بالآتي:

أولاً : الاحتلال، ففي الوقت الذي يتّجه فيه العالم إلى خلق قيم كونية تقوم على احترام الكرامة الإنسانية وصونها، فإن أمتنا العربية والإسلامية تتعرّض هي بالذات إلى الاحتلال بشكله الاستعماري القديم والبغيض. إن الاستعداء على أمتنا بالاحتلال العسكري المباشر يعني أن منطقتنا وشعوبنا تملك ما لا يملكه الآخرون، وتستطيع ما لا يستطيعه الآخرون، وأن الاحتلال المباشر هو الطريق الأسرع والأنجع لتعطيل قدرات هذه الأمّة .

ثانياً : تذرير المنطقة على أسس طائفية ومذهبية وإثنية وجهوية ودينية، ذلك أن القانون الاستعماري القديم «فرّق تسد» ما زال فاعلاً، وما زال المستعمر القديم يستغلّه في منطقتنا من الرباط حتى كوالالمبور. إن فكرة تفتيت العالم العربي والإسلامي فكرة استعمارية قديمة، لا تزال برّاقة في ذهن المستعمر الذي لم يتخل عن عقليته الاستعلائية، ويقوم بإسقاط كلّ الأقنعة بشرعنته الاحتلال المباشر.

ثالثاً : خدمة إسرائيل وجعلها الدولة الأقوى والأكثر أمناً، وذلك من خلال إنهاك كل شعوب المنطقة، وإفقارهم وتجريدهم من مفاعيل قوتهم. إن استثناء إسرائيل من المعاهدات الدولية، وجعلها فوق القانون الدولي والإنساني، جزء من عملية أكبر وهدف أعرض. إن تقوية

إسرائيل وتغذيتها وتصليبها من معظم دول الغرب يقابله إضعاف أمة العرب وسلبها مصادر قوتها .

رابعاً : المحاولات المتكررة والدؤوبة لزعزعة المرجعية العليا والمقدسة لهذه الأمة ، والجهد الحثيث لطمس الهوية وقطع العلائق مع كلّ ما أنتجته الثقافة العربية الإسلامية من مُثل ونماذج وسياقات فائقة الكمال ، وقد اتخذ هذا المنحى هجوماً مركّزاً على منابع الثقافة العريضة والعريقة ، من خلال الإعلام والأدب والسينما ومراكز البحث والجامعات والمعاهد والاستشراق ومجالات العلوم الإنسانية المختلفة التي لا ضابطَ قيمياً لها أو محدداً فكرياً يحكمها .

خامساً : عولمة اقتصادية فكرية سياسية ظالمة تسعى إلى هدم الكيانات المجتمعية ، وتبهيت الفوارق بينها ، وتحويلها إلى قطعان من المستهلكين بلا خصوصيات ، وبلا كيانات سياسية صلبة ولا أنساق مجتمعية منيعة ، إذ تستبدل بالحكومة الشركة ، ويُستبدل بالاقتصاد الوطني حسابٌ في البنك الدولي ، وبالخبير الماهر يدٌ عاملة رخيصة ، ولا يعود للإبداع الحقيقي دورٌ ما دام هناك من يصدر النماذج والرموز للعالم كلّه . العولمة بمفهومها الذي نفهمه نحن هنا في هذه المنطقة ، والذي نلمسه ، أيضاً ، هو تحويل العالم إلى عبيدٍ وأسيادٍ ، شركاتٍ عملاقةٍ وجماهيرَ فقيرة .

استعمارٌ جديد مرعب، لأنه لا يستعمل القوة العسكرية ، فقط، وإنما يحاول أن يعيد وعي الجمهور ذاته ليقبل الاحتلال باعتباره المنقذ .

سادساً : نظام عربي أعلن إفلاسه تماماً، أخفق في الحرب ، وأخفق في السلم، وأخفق في التنمية، وفي تعبئة الجماهير، ذلك أن هذا النظام الفسيفسائي اعتمد مصالح متضاربة وأهواء مختلفة، أخفق وحدوياً وأخفق قطرياً، فعاد ذلك كلّه على شكل جماهيرَ معطلةٍ مقموعةٍ رأت في الغياب أو «الإرهاب» حلاً لها .

سابعاً : نخبة ثقافية تغريبية استوردت الرؤية والنظرية إلى واقع لا يشبهها ولا يطيقها، فعدلوا الواقع وغيّروا البيئة ليلائما المستورد، فكان أن صارت غربةٌ حقيقيةٌ للواقع ، من جهة، وللرؤيةِ المستوردة، من جهة أخرى. ويبدو أن ذلك أساسُ مشكلةِ ما يسمّى «العالم الثالث»، إنه عجز عن خلق تجربته الذاتية، إما لغياب الإرادة أو لارتهانها. هذا الوصف لا يتم إلا بالإشارة إلى استراتيجية الإدارة الأمريكية اليمينية الحالية التي وضعت أولوياتها للعقد القادم على النحو الآتي :

1 . ترى أمريكا أن من حقّها استخدامَ القوّة المباشرةِ ضدّ أي مجموعة، وفي كلّ مكان ومتى شاءت (حفاظاً على الأمن القومي!).

2. إن على العالم أن يقبل ويرضى بتدخلها في حلّ أي مشكلة في أي بقعة من بقاع الدنيا، وأن يتم الأخذ بوجهة نظرها .

3. ترى الولايات المتحدة أن عليها أن تسبق العالم المتقدّم تكنولوجياً واقتصادياً وعسكرياً بخمس عشرة سنة ، على الأقل .

4. تعتقد الولايات المتحدة وترى أن يتهيأ العالم ويستعد لتقبل الأفكار والمبادئ الأمريكية وأسلوب حياتها وثقافتها، وأن تنتهي مشاعر الكراهية والرفض لها .

5. ترى الولايات المتحدة أن من أهدافها الكبرى إبقاءَ إسرائيل دولةً قويةً وآمنةً ومتقدمةً على كل المحيط الذي توجدُ فيه .

6. ترى الولايات المتحدة أن من واجبها، وواجب «العالم الحر»، قطعَ مصادرِ الإرهابِ المتمثّلِ في الأصولية والعنف وتجفيفها!

إن هذه الرؤية الأمريكية التي هي ثمرةُ اليمينية وتيارات (اليهوسيحية) تجدُ مجالَها الأرحبَ ، وتجد تبريراً لها ، في منَطقتنا بالذَات، ذلك أن إسرائيل وما يسمى «الإرهاب» وبؤرة الاشتباك الدائم كلّها في منطقتنا، وبالتالي فإنّها الهدفُ والملعبُ، أيضاً .

الولايات المتحدة، وحتى تمررَ أهدافَها السابقةَ، تعملُ على إبقاءِ وضعِ التشظيةِ والتشرذمِ والفقرِ والفرقةِ من خلال :

أ. تفريغ الأجيالِ العربية الإسلامية، وجعلها سهلةَ الانقياد، أشبهَ بالقطعان، وذلك بتوظيف الأذرع التقنية وثورة الاتصالات وغسل الأدمغة، بتحويل نظريات علم الاجتماع والسياسة إلى ما يشبهُ التبريرَ الاستعماريَّ والتفوّقَ العنصريّ، وكذلك بعمليات الانتقاء والنفي لسرد التاريخ ورواية الحضارة.

ب. تحويل الولاءات، وتغيير الأولويات من خلال شراء العقول والمنظمات غير الحكومية الممولة جيّداً، وكذلك عملياتُ التبادلِ الثقافيِّ والعلاقاتُ والاتفاقاتُ السياسيةُ والاقتصاديةُ.

ج. المطالبة بتغيير برامج التعليم المدرسيِّ والجامعيِّ، وعمليات التشويه في ماهية التعليم وكيفية نتائجة، بحيث تنعدم إمكانات الإبداع في الوطن.

- هذه الهجمةُ يتعرض لها العالم العربي والإسلامي بأكمله. أما في فلسطين، فالهجمة أشرس وأكبرُ، وعملياتُ التفريغ والعدمية ذاتُ

أشكال عدّة ومختلفة، ظاهرة وخفيّة، وتدخل علينا بألف لبوس ولبوس، ذلك أن فلسطين تُعد «منجمَ الإرهاب وأسَّ العنف»، كما أنها الأنموذجُ العالي الذي يجبُ كسرهُ، باعتبارها الأنموذج الذي قدّم للعالم شكل الانتفاضة ونوعية المقاومة، والأهم من ذلك كلّه أن فلسطين تشكّل نقطةَ الخلاف العميق بين عالمين وبين رؤيتين، ولهذه الأسباب، كانت الهجمةُ على فلسطين وشعبها أكبر وأعرض وأعمق.

وقد تمثّلت الهجمةُ الغربيةُ التي تقودُها إسرائيل والولايات المتحدة علينا كما يلي:

أولاً: استهداف مفاعيل الوعي ومكونات الشخصية وتأصيل المدارك، وذلك من خلال وضع ظاهرة المقاومة وحصارها بالاتفاقات السياسية وإحداث تغيير عميق في الوعي الفلسطيني تمثّل في تحويل الآخر النقيض إلى آخرَ يمكن التعايش معه، وتمثّل، أيضاً، في إنزال السقوف العالية إلى مجرّد المطالبة بتطبيق «خارطة الطريق».

ثانياً: المطالبة بوقف ما يسمّى «التحريض» على إسرائيل، وذلك من خلال نصوص الاتفاقات السياسية إياها. إن وقف ما يسمى «التحريض» على إسرائيل يعني تغييراً عميقاً في الوعي والمصطلح واللغة، وعملياً، فإن هذا يعني تغييراً في المنهاج المدرسيِّ ولغةِ الإعلامِ

ولغة السياسة، فلا يمكن ذكرُ الجهاد والقدس والاحتلال، شعراً أو مثلاً أو قصة أو قرآناً، بمعنى تفريغ المنهاج من محتواه الوطنيِّ والدينيِّ والجهاديِّ، ولا ننسى في هذا الصدد اشتراطات البنك الدوليِّ الذي يموّلُ طباعة الكتب الخاصة بمحتوى المنهاج، وضرورة ابتعاده عن ما يسمّى «التحريض»، وهذا ينطبقُ على الفلسطينيين ولا ينطبقُ على الإسرائيليين .

ثالثاً : عملت إسرائيل على هدم العديد من المدارس والجامعات وإغلاقها، وألغت الحياةَ الفكريةَ والفنيّةَ في فلسطينَ إلى حدٍّ كبير، وأوقفت الحياةَ التعليميةَ إلى حدّ بعيد وعطّلتها، ما أنتج جيلاً عصابياً يرى العنفَ أساساً للتعامل مع الحياة. وفي هذا الصدد ، يمكنُ الإشارةُ إلى أنَّ أطفالَ فلسطين الذين يرون الإذلال والقتل والهدم والاعتقال كلَّ لحظةٍ من لحظات طفولتِهم إنما يعيدون الإرهابَ الإسرائيليَّ إلى نحوره.

رابعاً : الجامعات الفلسطينية هي جامعات خاصّة وتخضع لاشتراطاتِ المولين، أيضاً، ما خلقَ جوّاً أكاديمياً تغريبياً إلى حدٍّ ما، إذ لا يُنقلَ الشارع العربي إلى قاعةِ المحاضرات، بل يُنقلُ الشارعُ الغربيُّ إليها، كما أن ربع المحاضرين في بعض الجامعات هم من الأجانب، يضاف إلى ذلك غياب مراكز البحث، وعدم وجود برامج لتطوير قدرات

المدرسين، وبما إنَّ التعليمَ غيرُ مجانيٍّ فإنَّ فرصةَ الدراسة لا تُتاح للجميع.

الجامعةُ هنا تقومُ - حَسْبَ اشتراطات الممولين - بعملية تغريبية أخرى، وقد يكون من المستغرب أن تجد معظم طلبة الجامعات لا يعرفون العربية قدر استيعابهم وافتتانهم باللغات الأخرى.

خامساً: واجهةٌ تغريبيةٌ أخرى هي واجهةُ الصحافة، فهي، أيضاً، صحافةٌ خاصةٌ يقبض معظمها من البنك الدوليِّ والمانحينَ ضمنَ اشتراطات، منها تكريسُ مصطلحاتٍ جديدةٍ لا تزعجُ إسرائيلَ والولاياتِ المتحدة.

سادساً: أما دُورُ العبادة فإنها ستخضعُ، على ما يبدو، لرقابةٍ غير مباشرة حتى لا تكونَ مصدراً للتحريضِ والأصولية، وبالتالي تزويدُ الخطباءِ بأوراقٍ صفراءَ من العهد العثمانيِّ تتعلّق بتحريم الأكلِ بملاعقَ من ذهب.

سابعاً: أغرقَ الممولونَ الضفةَ والقطاعَ بمنظمات غيرِ حكومية بلغَ عددُها حتى اللحظة أكثر من ألف منظمة تعملُ فيٍ حقوق الإنسان والمرأة والطفل والديمقراطية والبحث والتنمية، لكنّ معظمها في الحقيقة يؤدي

ثلاثة أدوار لا غير : أولها : أنها تحصلُ على أربعينَ في المائة من المبالغ المخصصة للشعب الفلسطيني. ثانيها : أنَّ هذه المنظمات تنفقُ تلكَ المبالغَ على نشاطات مشتركةً مع منظمات إسرائيلية تعملُ في المجال ذاته، ما يخلق جسوراً للتطبيع. ثالثها : تقوم هذه المنظماتُ بجمعِ المعلومات، وتزوّدُ الغربَ بها، كما أنها تقوم بقلب أولويات المجتمعِ الفلسطينيِّ، فبدلاً من المطالبة بحقِّ تقرير المصير للشعب الفلسطيني، مثلاً، تطالب بحقِّ المرأةِ، وهو طلبٌ شرعيٌّ، لكنه كلامُ حقٍّ يرادُ به باطل.

ثامناً : المؤسسةُ الرسميةُ الفلسطينيةُ تعاني من شحِّ الإمكانات، وعدمِ تعوّد المجتمعِ الفلسطينيِّ المهشّم على وجود مؤسسة رسمية، يضاف إلى ذلك غيابُ استراتيجيات العملِ الثقافيِّ، تخططُ للمضمون والعلاقة مع الذات ومع المحيط، وكذلك إيجاد الردود تجاه الإسرائيلي، أكانَ مؤرّخاً جديداً أم حركةَ سلام أم يساراً أم يمينياً متطرّفاً. فعندما حاولت المؤسسةُ الرسميةُ التعاطي مع هذا البعد، بالذات، وقعتْ في فخِّ التطبيع من خلال قوائم التواقيع المشتركة التي ساوت بين الضحية والجلاّد، وتناست القدس واللاجئين، ولم تحمّل الاحتلالَ مسؤولية جرائمه.

تاسعاً : تهديمُ الرموزِ واحتلالُ الهوامش ، ونعني بذلك النجاحَ النسبيَّ الذي حقّقهُ الآخرُ على إطلاقه في تحويلِ أحلامنا إلى جنون ، وآمالنا الكبيرةِ إلى عدمِ واقعية ، فالمقاومُ صار إرهابياً ، والوحدويُّ صار غير واقعي ، والعروبةُ صارت أضحوكةً والإسلامُ صارَ موضعَ شبهة . إن تهديمَ رموزِ الأمةِ من الإهاناتِ التي يجبُ أن لا تُنسى ، وأن لا تغتفر .

عاشراً : يمكن الإشارةُ إلى النجاح النسبيّ الذي حققه الآخرُ النقيضُ على إطلاقه في صناعة الحدث وصناعة صداه ، أيضاً ، وذلك عن طريقِ قديمِ الحلول وتقديم بدائلها ، حتى يمنع المستعمر الشعوب من اجتراح بدائلها وزعمائها بنفسها . إن الآخر على إطلاقه يعمل على تشويه خيارات الجماهير من خلال وصفها بالإرهاب والتطرّف والأصولية ، ليتمكّنَ من تقديم بدائله التي تخدمَ مصالحه .

حادي عشر : المطالبةُ الدائمةُ بأن يتمَّ تناولُ الدّينِ بطريقة مغلوطة ومجزوءة ، وأن تُستغلَّ النصوصُ المقدسةُ في غيرِ مكانها وفي غير سياقاتها .

ثاني عشر : توظيفُ الأشكال الإبداعية المؤثرة لخدمة أهداف الآخر ، وذلك من خلال التركيز على قضايا معينةٍ في السينما والدراما والأغاني .

ثالث عشر : إغراق السوق بنماذجَ وذائقة استهلاكية هابطة، من خلالِ الأفلامِ والدعايةِ والجنسِ كبديلٍ عن الثقافةِ الحقيقيةِ ذاتِ المفاهيمِ التي لها علاقةٌ بجوهرنا .

رابع عشر : ضربُ الاقتصاد الفلسطيني، والبنية، التحتية، لإلحاقه بالاقتصاد الإسرائيليِّ، لتعميق التبعية، وجعلِ المجتمع الفلسطيني عاملاً وليس زارعاً أو صانعاً، للوصولِ إلى المقولةِ الإسرائيلية : «ثراءٌ فرديٌّ فلسطينيٌّ وفقرٌ قوميٌّ» .

بعد ذلكَ كلِّه، ما المطلوبُ إذاً ؟ ماذا علينا جميعاً أن نفعل ؟ وكيف نواجه هذه الهجمةَ الشرسةَ المحكمة والمتقنة ، والتي تشارك فيها كل الأذرعِ التقنية والفنيّة والسياسية والفكرية والاقتصادية، وكأنّ هناك «مايسترو» واحداً يوجّه هذه العمليةَ الأضخَم من نوعِها في تاريخِ الاستعمار كلَّه .

وقبلَ كلِّ شيء، فإنّ كلامي هذا أُوجهُه للمثقفينَ، باعتبارهمُ القلعةَ الأخيرةَ التي يجبُ أن لا تستسلم وأن لا تركعَ أو تخضع .

هذا نداءٌ وتحذيرٌ لكلّ المثقفينَ العربِ والمسلمين بأنّ عليهم خلقَ جبهةٍ ثقافيةٍ عريضة غير رسمية للوقوف أمام غول العولمة والاستعمارِ والتطبيعِ، والتمسّك بالمبادئَ الكبرى، هذه اللحظةُ بالذاتِ هي لحظةُ

التمسّك بالمبادئ الكبرى، هذه لحظةُ الامتحان الصعب، ليس هناكَ من داعٍ للمثَقف الملتزم أن يساوم أو يتوصّلَ إلى تسوية، سيظلّ الآخرُ النقيضُ نقيضاً، وليس آخراً فقط، أو أخاً عدوّاً .

هذا نداءٌ وتحذيرٌ للمثقف الفلسطيني والعربي أن يخلق لنفسه دوراً مختلفاً عن دور السياسي، وأن لا يتبعَه وأن لا يطيعَه، وأن لا يتمثّلَ لغتَه أو تسوياته . للمثقف الفلسطينيِّ والعربيِّ أن يعملَ داخلَ مجتمعه لكبحِ الهرولةَ والتفريط واليَأس والفراغ والعدمية، وللمثقف الفلسطيني والعربي أن يؤكّدَ ثوابت الأمة التي بها نَجَتْ وانتصرت، وأن يتمسّك بالحلم الكبير الأبديّ.

للمثقف الفلسطيني والعربي أن ينبّه إلى مخاطر تغيير المناهج، وإلى إعادة النظر في نتائج الأبحاث، وأن يطلبَ من الجامعاتِ أن تعيدَ النظرَ في مناهجها وأساليب تدريسها .

وللمثقف العربي والفلسطيني أن يعرّيَ ما تقومُ به بعضُ الجهات والمنظمّات من تسويق مفاهيم لامعة وبرّاقة تخفي تحتها الدمارَ والهلاك .

وللمثقف الفلسطيني والعربي أنً لا يتماهى مع شعاراتَ القطرية والجهويةِ والحدودية بين الشعب الواحد، وأن لا يعلي من شأنَ الكنعانيةَ أو الفينيقَية أو الفرعونية أو البربرية أو غير ذلك من دعواتٍ ميتةً ومنتحرة .

وللمثقف العربي الفلسطيني أن يبحثَ عن مصادر قوّتهِ الحقيقيّة، وعن

تلك المفاعيلِ الثقافية الموحّدة والمجمّعةِ، وأن ينحازَ إلى خيارِ الجمهور، لا أن يزيّفَه أَو يبهّتَه أو يشوهَه.

وللمثقف العربيِّ والفلسطينيِّ أن يتصدّى للحملة الظالمة على العربِ والمسلمينَ، وأن يعملَ بلا توقّف في إيضاح المعاني والمفاهيمَ التي توضّحَ الفروقَ بين الاحتلالِ والإرهابٍ. فلا نخجلُ من ثقافتنا ولا نعتذرُ عنها، للآخرين أن يعتذروا عن مذابحهم ومجازرهم، في ظلّ استقبال الرئيس بوش استقبالَ الفاتحينَ عند زيارته هذه المَنطقة، إنه لم يكن فاتحاً، بل كان محتلاً لأرضيْن أهدتا العالم حَضارات ودياناتٍ ستبقى إلى أن يرثَ اللهُ الأرضَ ومن عليها.

المتوكل طه – سيرة ذاتية

E- mail : mutawakel@a-taha.com
Web : www.a-taha.com

– من مواليد مدينة قلقيلية – فلسطين العام 1958 .

– اعتقلته سلطات الاحتلال الإسرائيلي غير مرة.

– انتخب رئيساً لاتحاد الكتّاب الفلسطينيين من 1987 - 1995.

– انتخب رئيساً للهيئة العامة لمجلس التعليم العالي الفلسطيني من 1992- 1994.

– شغل منصب وكيل وزارة الإعلام الفلسطينية من 1994- 1998.

– أسس «بيت الشعر» في فلسطين العام 1998 مع عدد من المبدعين الفلسطينيين، وما زال رئيساً للبيت، بالإضافة إلى رئاسته للمؤسسة الفلسطينية للإرشاد القومي برتبة وكيل وزارة.

– أسس مع عدد من الشعراء والمبدعين منظمة «شعراء بلا حدود» وهو الآن رئيسها ، ومقرّها مدينة رام الله .

– شارك في العديد من المؤتمرات والمهرجانات، ونشر الكثير من أعماله في الداخل والخارج ، وترجم عدد من أعماله إلى لغات عدة.

في الشعر صدر له :

– مواسم الموت والحياة.

– زمن الصعود .

– فضاء الأغنيات .

– رغوة السؤال .

– ريح النار المقبلة .

– أو كما قال (مختارات) .

– قبور الماء .

– حليب أسود (عن هارون الرشيد والبرامكة) .

– نقوش على جدارية محمود درويش .

- الخروج إلى الحمراء (عن أبي عبد الله الصغير وتسليم غرناطة).

* وقد صدرت الأعمال الشعرية المذكورة عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، العام 2003 .

- الرمح على حاله .

في الدراسات صدر له :

- بعد عقدين .. وجيل (الثقافة الوطنية الفلسطينية في الأراضي المحتلة بعد عشرين عاماً من الاحتلال) - بالاشتراك .
- دراسات في الأدب واللغة (الإنسان، الشعر، المسرح، اللغة).
- الثقافة والانتفاضة (بعد ألف يوم من الانتفاضة، أثر الانتفاضة في الثقافة وأثر الثقافة في الانتفاضة) - بالاشتراك .
- إبراهيم طوقان (دراسة في شعره) .
- الكنوز : أوراق الشاعر ، (ما لم يعرف عن إبراهيم طوقان) .
- هذا ما لزم ، رسائل إبراهيم طوقان إلى فدوى طوقان .
- دراسة في قصيدة «الثلاثاء الحمراء» ، البحث عن شاعر آخر .

* وقد صدرت الكتب الأربعة الأخيرة عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر في بيروت العام 2004 في مجلد بعنوان «حدائق إبراهيم طوقان» .

- قراءة المحذوف (قصائد لم تنشرها فدوى طوقان) .
- مقدمات حول الشعر الفلسطيني الحديث والثقافة الوطنية .

النصوص (الأعمال النثرية) :

- رمل الأفعى (سيرة كتسيعوت ، معتقل أنصار 3).
- عباءة الورد (نصوص الانتفاضة) .
- طهارة الصمت (عن الكتابة وهموم الثقافة) .
- الانتفاضة، مرايا الدم والزلزال (شهادة - عامان على انتفاضة الأقصى).

*وقد صدرت هذه الأعمال النثرية في مجلد صدر عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، العام 2003 .

– عرش الليمون (مختارات) – قلقيلية في أدب المتوكل طه .

* وقد تناولت العديد من الأبحاث والدراسات الأكاديمية أشعار المتوكل طه في غير دراسة ومؤتمر ، كما تناول الطالب عبد المجيد حامد في دراسة خاصة أشعار المتوكل طه أجازتها له جامعة النجاح الوطنية بنابلس ، إضافة إلى أكثر من خمس وعشرين دراسة ضمّها كتاب «صورة الغناء» الذي أعدّه وقدّم له مراد السوداني ، وصدر الكتاب عن دار الماجد برام الله العام 2003 م، كما تناول الناقد فايز أبو شمالة أشعار المتوكل طه ، خصوصاً مجموعة «الخروج إلى الحمراء» ، فأصدر كتاباً بعنوان : «افتراض المشابهة» صدر عن المؤسسة الفلسطينية للإرشاد القومي .